فاوانيا

فاوانيا

ريم الكيالي

الطبعة الأولى
2021م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2021/2/853)

819.9
الكيالي ، ريم رياض
فاوانيا./ ريم رياض الكيالي .- عمان ، المؤلف 2021.
( ) ص
ر.إ: 2021/2/853
الواصفات: النصوص الأدبية// النثر العربي// الأدب العربي/

ISBN:978-9957-67-840-1

Copyright ©

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من المؤلف.

يطلب الكتاب من الكاتب نفسه

هاتف: 00962796007970

المملكة الأردنية الهاشمية – عمان

الإهداء،،

إلى أُمي التي قَصَّتْ عَليَّ قصَّةَ ليلى وَالذئبِ مِراراً وتَكراراً، حِين جمَّلتْ ليلى بِفُستَانٍ أَحمَرَ وأَسهَبت بِوَصفِ أَنيابِ الذِّئب.

إلى أَبي الذي سيَّجَ أَسواري وَرْداً بِيَديهِ وحَفظَني عن دَربِ الذئبِ، ورَفعَني لِسمَاءٍ أَعلَى من يَديهِ وَأَكبَر، حينَ أَطلقني وَلَمْ يَكبَح جَناحَيّ.

إلى كُلِّ من عَاشَني قِصَّةً مُصوَّرةً، حَدثاً وَحَديثاً . .

بِدْءًا

من لا يعرِفُ قصةَ "ليلى والذئب" . . ؟

إلى كُلِّ ليلَى خَرجت إلى الغابَةِ أم لَمْ تخرُج، إن استطاعَتْ قَطفَ الأزهارِ الجميلَةِ أو ذَبُلت بينَ يَديها . . إن وَصلت لِوجهَتِها فِي مَواعيدِ وصولِها برِفقةِ الذِّئبِ آمنَةً مُطمَئِنَّةً، أو التَحفَتِ الأزهارَ، . . ونامَتْ!

إليكَ أيُّها الذئبُ، إن توَّجتَ ليلى بالأزهارِ، أو سَرقتَ منها سَلَّةَ الحَلوَى، إن رافَقتَها فِي الدَّربِ وغَنَّيتَ لَها وأمسَكتَ يَديها، أو أخليتَ سَبيلَها برَهنِ وِشاحِها الأحمَرِ مُقابِلَ طَريقٍ مُختَصَرٍ وحِصَارٍ . . أو بِحُجَّةِ جُوعٍ؛ أكلتَها . . ! !

. . . لأجلكُم كَتبتُ، فَاوانيا .

مَن "فَاوانيا"..؟

"فَاوانيا" اسمٌ لِزَهرةٍ.. مُتفَرِدَةٍ، لا يُغريها ضوءٌ كَي تفرِدَ أجنِحَتَها، خَجولَةٌ، إن مَسّها بَردٌ انطوَتْ على نَفسِها كَي تُدارِي شُعلَتَها..

زَهرةٌ مَتناغِمَةٌ و مواعيدُ الفَرحِ، مُرتَبِطٌ حُضورَها بالخُلودِ، لَها هَيبَتُها لتَقِفَ وقفَةَ ثِقَةٍ.. لا تَقبَلُ القِسمَةَ على "مَوعِدٍ مع القَدر"؛ زَهرةٌ مَلِكَة.

إن حَزَنَت مالت للأزرَقِ و خَبَّأت فِي جَعبَتِهَا الحُورِيات.. و إن بَكَتْ تَلألأت بَراعِمٌ جديدةٌ على أغصانِها، بيضاءُ رَقيقَةٌ.. كَدمُوعِ "دِيانا" على "أُوريون"، تَمتَثِلُ حَمراءَ لتُذَكِّرَ غَضَبَ "اسكلبيوس"..، وَردِيَّةٌ مُعجَبَةٌ بِنَفسِها، بَنفسَجِيَّةٌ شامِخَةٌ بجاذِبِيَّتِهَا، صَفراءُ طائِشَةٌ، و بُرتقالِيَةُ اللون.. دافِئَة..

الفَصل الأول

زهرة "فاوانيا" واحدةٌ بيضاءُ لي.

. . . وتدومُ عِبارتُهُ "أنتِ لِي كُلُّ شيءٍ !"

وكُنتُ اكتَفيتُ بِزهرَةِ "فَاوانيا" واحِدة، لأنَّني قنوعَةٌ جِداً وقَلبي لا يُجيدُ غيرَ عدِّ الخَيباتِ ! . .

لطالما كانَ يُغريني السَّعيُ، ويُحبِطُني الوصولُ، لهذا كنتُ أمَسِّدُ فِي عُمرِكَ تُرَيبَةً؛ كَي أزرَعكَ بذرةً . . ، أسقِي أوراقَكَ، أحمِي ربيعَانَكَ . . أسمُو وعُنفوانَكَ، وحِينَ تفتَّحِكَ . . أقطِفُكَ، وأهدِي "فَاوانيا" واحِدةً لموتِكْ !

فَلْتنفِض عن روحِكَ غُبارَ الحُزنِ، وكأنَّ شيئاً لَم يَكُنْ . .

ولِتَبْدُ هكذا، بكامِلِ بريقِكَ . . أريدُ أن أراكَ كما يَنبغي عليكَ أن تَكونَ كاملاً، لا يسرِقُكَ عَجزٌ ولا يمهلُكَ انشغالْ . . أحتاجُكَ مُفعَماً بالكَلامِ على بابِ صَمتي . . تَطرُقُ إذنَ دُخولِ الحلمِ بيدينِ من وَردٍ وسِلمْ .

على البَنفسَجِ الصَّاحِي قَبلَ عيونِنا، سَلامٌ بَجَمِ الربيعِ المُتأخِّرِ . . لا يَحِقُّ لَنا استعجالُ الأخضرِ لوناً فِي أُفُقِ خَيالِنا، لكِن . . يَليقُ بِنا الوَردُ حينَ يَميلُ ناحيَةَ الرُّوحِ . . ويُحفِّزُ النَبضَ لكتابَةِ قَصيدَةٍ . . جَميلة . .

يُسعِدُني أن أراكَ تُمَسِّدُ لأشجارِنا المُزهِرَةِ سماءً . . وتقطِفُ لِي عُنقودَينِ مِن سُكَّرْ، يُسعِدُني أن أجتازَ الظَّهيرَةَ وأنتَ تُطفِئُ جَمراتِ الغِيابِ بأَلَقٍ يُناجِي خَجَلَ أزهارِ الكَرزِ . .

أمنيَتي . . أن يدومَ العُمرُ ربيعاً، كما غُصنٍ زاخرٍ بالرَحيق، ما مِن نَسيمٍ يميلُ بنا، أبجدَيَتُنا لونٌ أبيض، وإحساسُنا مُفعَمٌ بالنَعيمْ .

فِي عينيكَ بريقٌ لم أعهَدهُ، وأجدُني لا أجتهِدُ فِي قِراءَتِهِ . . لا أدري ما الذي تغيَرَ، لذا سَأعتبِرهُ فارِقاً بَسيطاً فِي اللونِ . . وأمضِي . .

بِوسعي أن أكونَ ابنَةَ قلبكَ للأبَدِ، لَكِن يَتحتَّمُ عليَّ الابتعادُ عن دَورِ الشقيَّةِ حينَ أراكَ على الحُزنِ تتكِئُ، لو أعلمُ ما أهمَّكَ لحملتهُ عنكَ . . إلى متى ستبقى غامضاً فِي مِدادِكَ وكأنَكَ تتعلَّقُ بِحبالٍ صَدِئَةٍ من الآمال ؟ ! . . إن تُخبِرني ؛ أفهَم ، وإن لم أفهَم . . سأُقدِّرُ حَجمَ الكارِثَةِ على الأقَل ! قَد أستطيعُ رَفعَ أسوارِ القلعةِ بخطابٍ عاجِلٍ . . أو ببثِّ إشارةِ إنذار . .

كأنَ المسافةَ بيني وبَينَك . . تتَّسِع، أكبرُ من هوَةٍ تحملُ فَراغاً شاسِعاً . . ونصفَ سَماء . . ! ما الأمرُ الذي يجعلُكَ تُسافِرُ فِي مِزاجِكَ لأبعَدِ من حُدودِي، وكأنَني غُبَارْ !

أرغبُ لو أقتنص منكَ حُزناً في عينيكَ مُقيم، . . وكأنَّ مَفاتيحَ الكلامِ تلمَعُ فِي أفقِ صَمتِكَ ! . . ألا يوحِشُكَ غِيابِي عن مَسائِكَ ؟ . . أودُّ أن أصنعَ ضجَّةً توقِظُكَ من حَيْرَتِكَ، تأخُذني إليكَ لأغفو بعدَ شَغَبٍ طويلٍ . . على كتفِكْ .

لا تعجبُكَ مني سُنبُلةُ شَعرِي ! . . أنتَ تعلَم أنّي هيَّأتُ للونِي خَريفاً باكِراً ، فلا تُغامِر بسؤالِي عَن شُعَيراتٍ بيض . . من فَرطِ إدراكِي لكَ بتُّ فِي حُكمِ الجدَّةِ . . لا مَنزِلَ حِكمَة !

محاولاتُكَ فِي إقناعِي أنَّكَ هُنا باتصالٍ عاجِلٍ لَيسَت مُجدِيَة، فإنَّ كُلَّ قافِيَةٍ تُتَمِّمُ حروفَها بوجودِ السَّطرِ . . وإن كانَ مائِلاً إلى جهَةِ هَامشٍ لا يُؤدّي عِنوانَها . .

قَد يَكونُ دربُكَ أشبَه بسيرَةٍ ذاتيَّةٍ مضطَرِبَةٍ ملأتُ دَفاتِري بها، كُلُّ ما أطلبهُ هو أن تُتَصَبِّنِي قَضيَّتَكَ، حتى لا تَفتقِدَنِي بجانبِ اسمِكَ . . مَلِكَة !

إنصافُكَ لي . . يكونُ بأن أشُدَّ طَرفَ الغِطاءِ وأتكوَّرَ فيه ليلاً . . دونَ أن أتحِبْ ! . . بأن أُراهِنَ على نهاريَ الحافِلِ بك، وألا يَسرِقُكَ الوقتُ مني . . . ، انصافُكَ لي بلغةٍ أسهَلَ هو أن أُناديكَ فتُجيب . . بأن أخافَ فتُطمئِنني، بأن أصرُخَ . . فتوَبِّخني ثمَّ تُداري جُنوني . . بأن نفسِّرَ أحلامي، وتقرأَ صَمتي قبلَ أن تتخطّى بانشغالِكَ عن كلامي . . ، باختصارٍ ؛ بأن أميلَ برأسي . . فأجدُكَ تسندُه . .

. . أنا فتاةٌ حالِمَةٌ، تؤلّفُ في نهارِها ظِلالاً وتُكلّمُها . . في الليلِ، تُودِعُها الحِكاياتْ !

الضوءُ الخافِتُ لا يدلُّ على اتجاهاتِكَ . . ولا الضوءُ الساهِمُ في غَزلِ شَمسٍ فوقَ جَبهتِكَ يُشيرُ إليك ! تتباينُ ما بينَ خِفّةٍ وصُداعٍ، تتبنّى خُطّةَ نَهرِ عبّادِ الشّمسِ للإيقاعِ بي . . ومن فرطِ عَتمتي أراني أنسابُ ومَدارَ وُجهَتِكْ .

شُعورِي بتورُّطِكَ أشبَهُ بحاسَّةٍ سَابعةٍ ! ، تتمثَّلُ بدَفقةٍ لا تولِّدُ إلا الثِّقَلْ . . دَعنا نَخرُجُ عنِ المألوفِ ببساطَةٍ . . دُونَ قواعِدِ ارتكازٍ أو مُقَوِّماتِ تعَبْ . .

ليسَ بالضرورةِ أن يكونَ التورُّدُ في وُجنتَيَّ حَنين . . قَد يَكونُ انفجارَ بُركَانِ ضِيقٍ ! ، لا تُحَاوِلِ التَّخمينَ أبداً ، لن تَستطيعَ أن تحزِرَ لِمَزاجِي مَزِيَّقاً . . إني مُفعمَةٌ بالكَلامِ ، وإنَّكَ لفَائِضٌ بالصَّمتْ . . .

أشرِعَتُكَ واثِقَة من رِيحٍ ، وأمواجِي مُتصادِمَة، نسيِّرُ سَفينتنا بخوفٍ . . أنت رُبانٌ لا يَهابُ العواصِفَ، وأنا معكَ اكتشفتُ أنّي مُصابَةٌ بدُوارِ البَحرْ.

كانَ لا بُدَّ من مُفاجأةٍ مَنطِقيَّةٍ تُنعِشُ قَلبِيْ . . وابتسامةٍ صادقةٍ تحفِّزُ بي الحنينَ لصمودٍ يضَعُ الحُلمَ نُصبَهُ . .

بعدَ كُلِّ عاصفةٍ تمرُّ بنا . . نسقطُ كأيِّ اثنينِ غيرِ قادرَينِ على أن يَكُونا معاً . . ولكنَّنا من عُمقِ هاوِيَتِنا تتشابَكُ الأيدي ونَصعَدُ ! . . لقد امتَهنتَ الصُعودَ بعدَ كُلِّ مغامَرَةٍ لكَ وكأنَّكَ عُصفورٌ عنيدْ . . وأنِّي تَكيَّفتُ مع واقِعِكَ وباتَ لي أجنِحَة . . .

. . ليتني قَضيَّةٌ مُستعصِيةٌ تحتَلُّ مَجَالَ تَفكيرِكَ . . ولا تخرُجُ منهُ إلا بَعدَ تنويمٍ مِغناطيسيٍّ يعقِدُ عُقدَةً اسمِي على قَلبِكْ .

أجتازُ سُورَ حديقَتِنا بِحُلمٍ يَقظَةٍ يليقُ بِمسَارِ الهُدوءِ . . وأقتصِرُ بالبَحثِ عن مُفرداتٍ تؤدّي معناها تفسيراً يقايضُ معنَى الوفاقِ . . أقطفُ لي من عالي الغُصنِ عنواناً ، وأقتفي الكمالَ من فَرطِ نقصِ الواقِعِ المُحاصِرِ حُرِّيَتِي . . أُلبِي على سِفرِ الرَّحيلِ أختامَ المُدنِ البَعيدةِ ، وأعودُ . . . فِي جُيوبِ سُترَتِي السَّفرجَلُ ، وَفِي يدَيَّ خَرائِطُ من عِبَرْ !

أعِيشُ لأجلِ صَفحةٍ أكتُبها بِحَجمِ حَنينِي لأحلامٍ أداوِلُها بينَ النَهاراتِ، علّي ألتقِي بها غداً . . كَي أكتبَها فِي خُلاصَةِ مَوقِفي . . سطراً تشابَهَ مع رِقّةِ بتلاتِ زَهرِ اللوزِ . . . وأنتهي بإمضاءٍ يُسايِرُ دَربَ خُطوَتِي قُربَ مُبتدأ الوَجعْ . .

إنَ بعضَ الظَنّ إثمٌ، وإنّي لآثِمَةٌ بظنّي المَعهودِ بكَ . . ولكن ما اقترافِي لَهُ إلا رَدُّ فعلٍ لغِيابَاتِكَ المُتكرّرة، وما عودتُكَ إلا رحمةٌ بي تدعونِي لتوبَةٍ . . ليست نصوحا !

يترصّدُني وَهمٌ من كُلّ حَدبٍ، أراهُ يختبئُ خلفَ ظهرِهِ حُلماً مُزهِراً يترَبّصُ بي، وأرى بعينِ يَقيني أنَ فِي جُيوبِهِ حَفنَةَ كَوابيسْ .

عَجَبِي مِنكَ حين تفاقِمُ الوَصفَ، ومنّي حِينَ أضخّمُ الشُّعُور . . !

ما عَادت المفاجأةُ تملكُ تلكَ القُدْرَةَ المُضاعفةَ على بثّ الفَرحِ في أعصابي . . قد لا يليقُ بمفاجأتِكَ الصَغيرةِ هذا الوَصفَ الذي يُنافي تأثيرَ الدَّهشَةِ ، ولكنهُ تعميمٌ مُتأخرٌ بحسبِ تعليماتِ الشَفافيَةِ المُدرجَةِ في قَلبي ! تَبْتُكَ في إيهاجيْ هي فقط الاستثناءُ الوَحيدُ الذي يُحفّزُ فيَ انتظارَكَ مُبتدأً يحملُ الخَبَرْ . . .

حسبَ التَّوقيتِ المحليِ لقَلبي . . فقد آنَ أوانُ عَودتِكَ ! . . باتت الأيامُ مُجردَ ذَهابٍ وإيابٍ أُحصي به ما أَجْمَعْهُ من شُعورٍ مُتماوجٍ بينَ حَنينٍ وغَضبٍ . . لا يَسَعُني الميزانُ بينَ الكَفَّتينِ . . فإن لمزاجي عِصياناً لا مفرَّ لكَ منهُ .

الاتّجاهاتُ لم تختلف إحداثياتُها . . ! إنَّما خُطواتي مُترنّحَةٌ على سَطرِ الحالةِ . . . .

أبدو في مرآةِ بحيرتكَ غريبةً . . في جُعبَتي غُربَةٌ محتومَةٌ بسِحرِ بَجَعةٍ في جَوانِحِ العُمرِ، في مربوعِي أنتَ ساحَةٌ من اضطرابٍ لَم تَمُرَّ على عَواصِمِي إلا وقد أنذرَتِي ضُوءُ المنارَةِ . . وانشَطر!

دَعنا نعقِدِ اتفاقيَّةً للفَرحِ، ونوقِّع على بنودِ العَزمِ طَواعية، وعلى هَامشِ الوعدِ . . نزيلُ أبعادَ الوَهمِ بوجوبٍ يُرتِّبُ أيامَنا القادِمَة . . . .

لا أملِكُ وَرَقَةً رابحةً، وكأنَّ لي نصيبَ احتكارٍ على أمثالي من عَديمي الفائدةِ والحَظْ! ، أُعذِرُ تَشبيهي المُنطَوِي على مأساويَّةٍ مُبالغٍ فِيها . . فقد باتَ بإمكاني المُبالغةُ بالشَّرحِ، فلو سِرتُ على سُورِ فَرحٍ كَان أضعفَ مِن أن يحمِلَني . . لسَقطْتُ! فأحزاني بِوزنِ الفيلِ . . وحُرِّيَتِي فَراشَةٌ أُطَارِدُهَا وتبتعِدُ، ما بيني وبينها هَاوِيَةٌ من أشعةٍ بَنفسَجِيَّةٍ . . ومَدى!

جَميعُ العَلاماتِ الإرشادِيَّةِ على دَربِ الصُّمودِ . . لا تخمِّنُ لسلامتِنا موقفاً!

لما لديَّ من حَساسيةٍ مُفرِطَةٍ في شَمِّ الاحتِراقِ قبلَ حُدوثِه، ودَدتُ لو أجيدُ غيرَ التَّبصُّرِ في تَفاصيلِ الأمورِ الرَّماديَّةِ. . مَصدرٌ، لا أملِكُ غيرَ أطلالٍ أُجيدُ البُكاءَ عَليها . . ودَفاترِ رَسمٍ أملؤها بألوانِ الطَّيفِ.

أعلمُ أنَّكَ تَخبّئُ لي وراءَ يَديكَ "مُصيبة"، في جَيبِكَ الصَّغيرِ "وردةٌ"، أنا على أُهبَةِ القبولِ دائماً . . وأنتَ على أتمِّ الاستعدادِ لخلقِ المَزيدِ من مُقوّماتِ البُكاءِ لتُصادِرَ أسبابَ الفَرَحِ!

أراكَ تجُرُّ خُطاكَ على غَيمَةٍ دونَ ماءْ! . . ورُبّكَ أكبرُ مِن أن يَحتويهِ رئَبَقٌ أو سَماءْ . . أراكَ عَصِيّاً على الفَهمِ حتى أن الكَلِمات تبدو في عَينيكَ . . رِثاءْ . . ! . . خُذ ما تيسَّرَ من دَمعي لو كانَ يُغنيكَ عن مَوتٍ لا يُوفِيهِ انتعاشٌ أو يردُّكَ عنهُ انتهاءْ.

احشُد لِضيَاءِ عينيَّ جيشاً من صُمُوْدٍ . . وائتمِن بريقَهُما بأمنيَةٍ من ذَهَبْ!

تَحْصِدُني ضَحِيَّةَ لعبتِكَ الكبيرَة! بِكُلِّ صَراحَةٍ ودونَ أيِّ مُقدماتٍ أو أدنى تهديدٍ، فأنتَ تُحِبُّ اللَّعِبَ بالنَّارِ ولا أصابِعَ في يديكَ! أجِدُ نفسِي مُحاصَرَةً باتّهامِكَ لي في زاويةِ الأمرِ!

ما ذنبُ غُربتي لتُقحمَها معكَ في مدارِ أحلامِكَ المؤجَّلةِ؟.. إنّني أشتَهي رَحيلاً مؤبَّداً عن مُعاناتِكَ. فقد تَعبتُ من إدراكِ تَعبِكَ ولا أظُنُّني قادِرَةً على حملِهِ بعمودٍ فِقْرِيٍّ هَشّ!

لنْ أكُفَّ عن رَصفِ الاحتمالاتِ خَوفاً حيناً وحيناً أملاً.. أشعرُ أنني ضيَّعتُ جَمْرَ حِكايَتي وأنا أعيشُكَ.. إنني نَذَرتُ من ارتعاشَاتِ قَلبي لرَهنِ إشارةٍ من حَنينِكَ، ما كلَّفَهُ رَحيلْ!..

حين أنظرُ لقدمَيَّ أجدُني واقفةً برُكبتينِ واهِنتينِ على سَطحٍ من غُبارٍ كَونِيٍّ، أنتفِضُ من هَولِ العُلوِّ الذي أخافُ أن أرنوَ منهُ لِهَاويةٍ لا أجِدُكَ أسفَلَها لكي تتلقَّفَ أجزاءَ قَلبيْ!....

ضمنَ دروبٍ شائكةٍ تُهتُ وكأنَّهُ لا مَخرجَ لي، لأمرانيَ أدورُ نحوَ وُجهةٍ لا تُشبهُ مَسعايْ ! . . عَلاقتي بمفاجآتِكَ باتت تُعَزّزُ مَعنى الخَوفِ فِي جَوفِ قَلبي وتَجويفِه ! . . مَا زِلتَ تتفَنّنُ فِي وَصفِ الهدايا، وتُرخِرفُ جَبينَ الغَدِ بسطورٍ فَارغةٍ من أمَل . . أصبَحتُ أهذِي بجنونِكَ فِي كلَّ صَحو، وأرفضُكَ حُلْماً كُلَّ ليلْ ! . . أريدُ أن أطرُدَكَ كَهرباءَ اسمِكَ من مُخيّلَتي . . ليس حِقداً عَليكْ ! بَلْ ندماً على إقدامِي على لُعبةٍ أكبرَ من استيعَابيْ ! لَكِنْ ما الأمرُ الآن ؟ أصبحتُ فِي مُقدّمةِ جَبهَتِكَ ؛ النارُ من أمَامِي . . من خلفِي ومن تحتي ! وأنفاسِي فِي احتِراقٍ بَطيءٍ يَسرِقُ الأكسجينَ من دمِي . . !

تريدُني أن أثِقَ بكَ . . وبصَحيفتِكَ المُمزّقَةِ، أريدُكَ أن تعِيَ مَعنى أن يَكونَ الحُرُّ مقيَّداً بمخاطرَةٍ لا بُدَّ منها، . . وتُريدُني أن أُترجِمَ خوفَكَ عليَّ حُبّاً ! . . وشتّانَ ما بينَ اللُّغتَين ! كِلانا نَطْلُبُ هِبَةً من الله؛ أنتَ تُريدُها عُمراً قُربَ صُمُودِيْ . . وأنا أُصَلّي لِحياةٍ وسطَ حَماقاتِكْ !

امنَحني من سَلامِك مِقداراً يوفّي مِقدارَ حَربِ أعصابيْ . . مرتّل لِوُجُودِكَ صَخَباً فِي مُنحَى حَواسِي، واستَقِرَّ فِي رُكنٍ قَريبٍ من ظِلّيْ . . احكِ لِي حِكَايَتينِ عن بُحيرةٍ من لَونِ ارجُوَانِيٍّ وغَيمٍ أبيَضَ كَالقُطنِ، واجعَل نهايَتَهُما مَفتوحَةً على المَصيرْ .

كُلُّ الامتِنَانِ إلى هُدوءٍ شَمِلَنِي بِمَعروفِهِ . . لا أعلَمُ دَرباً مُختصراً لأرمَةِ رَحيلٍ . . ولكن أعلَمُ جيداً أن الخيارات أقلُّ من المُتَاحِ فِي ظلِّ العُروضِ، أودُّ لو نَكُونَ هَاربينِ من وعودٍ لا تُلبي وُجوهَها على قَلبينا، وأريدُكَ حَدَثاً استشرافيّاً لِمُعطياتِ فَرحٍ .

لا أستطيعُ أن أُحصِيَ غنائِمي من حَربِ الأعصَابِ البَارِدَةِ المَفتوحَةِ على مِصراعَيها . . إنما هِيَ هَزائِمُ مُتتالياتٌ، ولا سُلطَةَ لِقَلبِكَ كَي تَحمِلَ دُموعِي . . فأراكَ تلملِمُ خَطَايَاكَ وَتُنزَوِي فِي رُكنٍ قَصِيٍّ تُصلّي لِلحظَةٍ تَستَدعِي فِيها الأُمنياتِ . . مَنْطِقاً ومُنطَلَقاً .

مَسجوناً أراكَ فِي حَنَاياكَ انكِسارٌ . . تُحَاولُ النُّهوضَ لكنَّ الغُبارَ الرَمَادِيَ يأبَى أنْ يَنْصَلَ من يَديكَ . . أعلمُ أنَّكَ لونٌ مخالفٌ لما أنتَ فيهِ من قَتَامَةٍ، ولكِنْ لا يَسعُني تَلميعُ جَبينِكَ وهُوَ يَبدُو لي أعلى من أنْ أصِلَ إليهِ ! . . إنَّكَ تُحَاول . . ولتَعْلَم أنَّ ما باستِطَاعَتِي . . لا يَتَجَاوَزُ الغُفْرَانْ .

كِلانا تَجسيدٌ بَريءٌ للكَسَلِ، نَعبرُ أطرافَ النَهارِ على رؤُوسِ أصَابعِنا، لا يؤدّي صَوتُ العَصافيرِ على نوافذِنا ألحانَهُ ولا يَشدو . . لمأزِقٍ ! ولَسنا على خَطِّ الكَلامِ نُرتّلُ ما تُؤَدّيهِ الحَمَامَةُ الفِضيَّةُ التي احتلَّت حَيِّزَ الوَعيِ !

افتِقَارُنا للعيدِ لَيس حُجَّةً نعلّقُ عَليها أعذارَنا، لا تُوجِب عَليَّ اجتماعياتِهِ، وَكِيمياءَ الشُحُوبِ وكَعكَ السَّميدْ ! !، فإنّي لا أريدهُ نهاراً مُقيَّداً بالمَواعيدِ الصَفراءِ والوُجُوهِ الوَاجِمَة . . دَعنا نَستَعيدُ صِفَةَ العيدِ وفرحَهُ، ونتَّخِذُ مَجَالَ الفَراشَاتِ دَرباً .

. . ربّما لو نَثرتَ الماءَ حولَ أوراقِ الشجرِ لانسجمَ مُحتوى الحُلْمِ مع لونِ الفراغِ . . ! لستُ أبالغُ في الوصفِ . . إنّما أدعُوكَ لاقتناصِ لحظةِ فرحٍ أخضرَ قبلَ أن يُباغتَنا الخريفُ باصفرارِ أفكارِك، لا أكتبُ هذا بصفتي عيناً ترى كثافةَ موقفِكَ بالمُضيّ نحو سلامٍ بعيدٍ، إنّما من وجهةِ نظرِ أميرةٍ خياليّةٍ هاربةٍ من أسلوبِ السّردِ الرّتيبِ !

لماذا تتلقّفُني الأفكارُ مثلَ كُرةِ نارٍ ما إن تملَّ من الدّحرجةِ ومن رسمِ نُدوبٍ في دُروبي حتى تَنطفِئَ في إحدى زوايا رُقعةٍ سوداءَ ؟

تراني أُجمّلُ بصيرتي، لكونِ يرفضُ الصُّمودَ على خُطوتِكَ الشائكةِ لحاضرٍ فارغٍ من الأحداثِ . . فإنّ نوارسي تودُّ لو تدورُ في سمائِكَ وتُبعثرُ وُجومَ جبينِكَ . . بزخرفةٍ فاتنةٍ .

يا مِرآتي، غيّرتُ لَونَ شَعري استعجالاً لاستقرارٍ يُمثّلُني مَعرفةً بالاتّجاهاتِ الأوفى للسّلام، وإنّه للونٌ أقربُ لِبَحرٍ مُتخمٍ بالأسرارِ، . . . يا مرآتي، إنه للونٌ يُنادي على ثَلجِ الشُعورِ بي ويَستحوذُ على انطفاءِ نارِ أعصابي . . إنه لونٌ يمثّلُ جواباً لِسؤالٍ لم يَكتمِل صَمتاً . . ولونُ زَهرةٍ مُنغلقةٍ بجدائلِ أوراقِها ! . . إنه أُحجيةُ بَجعةٍ فيها من ريشي لونٌ ولي من بَقاياها رَمادْ .

فإني صدّقتُكَ مُنذُ أوهمتني بالسّعادةِ، وقاسمتني الشّغفَ قبلَ أن يَغتالَني الأُفولْ !

فِي نسجِ الأحلامِ مِن خُيُوطٍ حَريريّةٍ لا مَرئيّةٍ . . لا أحدَ يَتحدّاكْ !

قِفْ على سَطحٍ ثابتٍ و رَسّخ مَبادِئَ الواقعِ فيكَ ، كَفاكَ تفويضاً للأحلام !

فِي حُجرتي تَقِفُ كَلِمَتانِ . . تُثقِلانِ حَديثِي ولا تَرِنانِ مَعَنايَ، أبدو كَقِطَّةٍ تَبحثُ عن رُكنٍ يُؤهِلُها لِنَومٍ أَبدِيٍّ ! . . مُتعَبَةٍ كَمَن مَسَّتها جَمْرَةٌ صَوبَ ضِلعِها الهَشّ، أعِدْ تَرتيبَ النَومِ وَسُلطانَهُ . . أعِدْ صِياغَتِي لأُغْنِيَةٍ كامِلَةٍ !

أطلِقْ عَنانَ أَحلامِي لسَماءٍ أنتَ حارِسُهَا . . وَبَشِّرْ لِي كَيفَ لِحَمَامَاتِ القَصَصِ أن لا تَسْكُنَ شُرُفَاتِي ؟ !

قَد لا أُجيدُ الحُبَّ . . لَكِنَني أُجيدُ الكِتَابَةَ عَنهُ كَمَا لَمْ يَفعل أحدٌ، لَيست مُعجزَةً، فَفَاقِدُ الشُعُورِ يُجِيدُ مَنحَهُ، كَمَا يَرعَ فِي تَمنّيهِ !

إنَّها مَعرَكَتِي التي خَرَجَتُ مِنها بَعدَ كُلِّ مَوتٍ مُبتَسِمَةً، أَدمَنْتُ الحُزنَ مُنذُ نَصَبْتُكَ مُتلازِمَتِي . . وأنا نَاقِصةٌ شُعُورٍ !

إنّي على سُكنَى غَيمتِكَ مُنذُ العَهدِ فثِق بأني لا أخونُ، طَالَمَا قَرأتُ آيَاتِ الثَّباتِ على قَدَرِي . . مَعَكْ .

يُرهِقُني تَغيرُ الأَمَاكِنِ . . تتعَدُدُ العَنَبَاتُ، شَكلُ المَفَاتيحِ، لَونُ السَتَائِرِ . . ! ما يُهَوّنُ عليَّ أن قُلوبَ من حَولِي تُقَاسِمُني الأُلفَةَ . . كَمْ أَحتَاجُ لمحَبَةٍ تجتَازُ بِي أسوارَ الوَحدَةَ ! . . لا أدري أينَ أُفرِغُ أمتِعَةَ قلبي، لكنني واثِقَةٌ بأن حُضورِي أينَما حَلَّ باتَ أنيقاً، وأنَ عَينيَّ ما عادَتا تُسرِّبانِ دمعاً . .

أريدُ أن أستهِلَّ بالنَجمةِ مُتَّكأً لي عِندَ كُلِّ مُفتَرَقٍ، أريدُ أن أتخِذَ من الحُلمِ مَلجأً كَي أُخبِّئَ فيهِ أحلامَنا الصَّغيرَاتِ من غُولِ العَجزِ المُقيِّدِ لابتسامَتينا . . أُريدُ الكَثيرَ من أقلِّ معاني الحَياةِ . . مَعَكْ !

فِي أنفِي شُبهَةٌ للحُزنِ لا يَشُوبُها أيُّ شَكٍّ فِي أنَ وَحدَتي شاسِعَةٌ، وكأنَّها حَاسَتِي السَابِعَةُ . . !

أَنتَ تُدرِكُ عَجزَ الحيرَةِ بي لِهَذا أراكَ تُرَبِّتُ على كَتِفي عَلَّكَ تُمَسِّدُ أَلمِي، وَتَمْضِي . . مَا أُرِيدَهُ لَيسَ مَضِيَّكَ! أُرِيدُكَ ثَبَاتاً على الكَلِمَةِ، أُرِيدُكَ مَبدأً . . أُرِيدُكَ وَعداً وَعَهداً . . .

لستُ مُتَهاوِنَةً بِمَوضِعِ أَمَلٍ . . كُلُّ ما فِي الأَمرِ أَنني مُنشغِلَةٌ بِتَرمِيمِ الصُّورَةِ المَخدوشَةِ التي تُرِيدُ أَن تُعَلِّقَها بِإِطَارٍ خَشَبِيٍّ على جِدارِ العُمْرِ.

لكَ أَن تَختبِرَ حَواسِيَ دُونَ سُؤالٍ صَعبٍ . . لكَ أَن تَقرأَ شَغَفَ قَلبِي بَعدِ وَمَضَاتِهِ، لا بِتَتَبُّعِ ثِقَلِ جَوابِي أَو بِالانحِيَازِ نَحوَ . . انسِحَابِيْ . . !

بَدأَ الزَّهرُ يُسرِدُ وُجُودَهُ عَلى أَغصَانٍ جَفَّفَها البَردُ عَلى الشَجَرِ وَعَلى أَكتَافِنا . . أَنتَ تُزهِرُ بِحُنوِّكَ، وَأَنَا . . أَتَضاءَلُ فِي عَتَمَتِي!

. . وأَجدُني مِن فَرطِ ارتِبَاكِي، أَتَنَازَلُ عَن كُلِّ شَيءٍ . . ليسَ بِحِكمَةِ المُقتَدِرِ، إنَما مَن عَجزِ القُدرَةِ عَلى العَفوِ . . مِن هَوَانِ المَعنَى المؤَدّي إلى بِدَايتِكَ، مِن استِحَالةِ المسأَلةِ بترتيبِ حَمَاقَاتِكْ !

سَأَلتُكَ حُضُوراً يُلبّي النَظرَ، فَخُنتَ الظُّنونَ وَأَدميتَ عَيناً لَمْ يَبقَ فِيهَا غَيرُ الشَرَرِ . . وَدَامَ خَيَالُكَ آثِماً . . يُصَادِرُ عَنِي مِدَادَ الصُّوَرِ !

تَدَاعِيَاتُ الصُّورِ الرَّمَادِيَّةِ مَا كَفَّت عَن مُطَارَدَتِي . . حَتى أنني ابتَغَيتُ السَّيرَ على قَدمَيَّ لِفَترةٍ طَويلةٍ فِي شَوَارِعَ لا أعرِفُها ! . . ويُخَالِجُنِي شُعُورٌ ثَقِيلٌ عَلى بُعدِ خُطوَتَينِ مِنّي . . أودُّ لو أعلَمُ مَا هِيَ الخَطِيئَةُ التي اقترفتُها كَي أُجزَى بِهَذا الكَابوس ! عَلَيَّ أن أُمَارِسَ النِسيَانَ كَطَقسٍ ضَرورِيٍّ فِي حَالتي هَذه . . وإلا فَقَد أَصِلُ إلى مَرتَبَةٍ مُتَقدِّمةٍ مِن الهَذَيَانِ . .

تتقلّصُ مَخاوِفي حين تُداري إغفاءتي . . ابقَ قُربَ رأسي كَي لا تُفاجِئَني الأحلامُ بمواعيد صبّارٍ وَ نارْ ! أمّن لي غيمةً من قُطنٍ وَقمراً مُبتسماً ونُجُوماً بعددٍ لا مُتناهٍ، كُنْ سمائِيَ وَ احتلّ هذا الليلَ وَغطّني، عزيزي، قد سلّمتُ مفاتيحَ البُكاءِ لكَ . . أودِعها في صدرِكَ أمانةً حتّى حينْ . . .

أراكَ في موجِ غضبٍ يشدُّ على العُقدةِ بينَ عينيكَ خُيُوطاً مُجعّدةً أو يرفعُ من وتيرةِ صوتِكَ . . ! لم تركُضْ نحو الهاويةِ ؟ ! أنسيتَ أنّكَ وعدتني ذاتَ مسيرٍ إمّا أنْ نعلوَ أو أنْ نسقُطَ معاً ؟ . . امتطِ خُطوتينِ من صمتٍ وعُد أدراجَ قرارِكَ الورديّةِ التي لم تتخذها بعدُ !

أرتّبُ ملامحي بشكلٍ يليقُ بمرايا النهارِ . . وأنغلقُ على نفسي حينَ أنامُ لأتكوّرَ داخلَ شرنقةٍ خاليةٍ من الأكسُجين . . إلا من فُقاعاتِ التفكيرِ . .

مَاذا أفعلُ بكلِّ سَاعَاتِ الفَراغِ التي أملِكُها ؟ أشعرُ أنَّني مُصَابَةٌ بِداءِ الصَّنَمِ . . ! إنَّها الجُلُوسُ دُونَ حَراكٍ بعينينِ مَفتوحَتينِ، والتَفكيرُ بلا شَيءْ . . بالكَادِ أتَنَفَّس ! أتهزُ الابتِسَامَةَ بلَحظَةٍ لا تُشبِهُ الصَّحوَ وإنَّمَا تَدعُو للسُّقُوطِ !

تُفزِعُنِي فِكرَةُ أنَّ الوَقتَ مَهدورٌ وأن مَواعيدَ صَحوِكَ نَاقِصَةٌ . . لو أنني أستطيعُ إحداثَ فَارِقٍ في خَطِّ الأَرضِ التي تَدُورُ فَتَحُولُ مَواسِمُها بيننَا لفعلتُ ذلكَ مُنذُ آخرِ رَبيعٍ فَرضَ نَفسَهُ عَلينا، لَيسَ هُنَاكَ مَخرَجٌ سِوَى أن تَخترِعَ صُدفَةً وتُزَخرِفَها بمَوعِدٍ مَرئِيٍّ لا يَشُوبُهُ ظَرفٌ . . وَلَو كَانَ مُخَطَّطاً !

باتَ لِزاماً إغلاقُ دَوائِرِي عَليَّ، والانصِيَاعُ لأيِّ خُرافَةٍ تَدُقُّ بَابَ خَيالِي . .

لا أستطيعُ أن أعودَ أدراجي حينَما تَبدأُ سيمفونيَةُ الزبَقِ معزوفتَها في رأسي، استلهِمْ لي مَخرَجاً أميناً، فإنّي على شَفا صُداعٍ لن يُحَرِرَنَي منهُ إلا البُكاءْ!

فِيَ قصَّةٌ مَدمُوغَةٌ بالخَوفِ مِن كُلِّ شَيءٍ، حتى الضُوءُ الخَفيفُ الذي يَتَسَلَّلُ مِن بينِ السَّتائِرِ إلى عينَيَّ النَاعِسَتينِ، ليسَ هَذا مَا يُخيفُني بحَقٍ، فإنَ إيماني المُطلقَ بأنَ كُلَّ ابتِسَامَةٍ طَفيفَةٍ يقابلُها نَهرٌ مِن البُكاءِ، وأنَ كُلَّ زَهرَةٍ رَقيقَةٍ تَحُطُّ في باطِنِ يَديْ.. تُقابلُها غَابَاتٌ مِن الأَخضَرِ سَتَحدِرُ إلى جَهَنَّمَ!.. لَستُ أُروي مِن وَقائِعِ أيامِي غيرَ الذي تَنبغِي رِوايَتُهُ.. يَا ليتَها تَكتبُني بِقَلَمِ رَصَاصِيٍّ قَابِلٍ للخُرُوجِ عنِ النّصّ، بِمِمحَاة!

كَآبتي لَيست قَراراً بوسعِي أن أَدَعهُ جَانِباً وأتخذُ البَهجةَ بديلاً عَنهُ أو أُودِعَهُ ضِفَةَ النّسيانِ، إنَّمَا هِي تَسرُبٌ أنيقٌ.. صَريحٌ لنَزيفِ أيامِيْ!

فِي رَأسي مِن العَتمةِ البَيضاءِ مَا يَكفي لأنسجَ حَولِي هَالَةً أو كَفَنًا . . لستُ أسعى لأن أكُونَ فَرَاشَةً، فَقَد كُنتُ الفَرَاشَةَ ذاتَها التي أغراهَا الضُوءُ فَاحترقَت بِهْ ! . . فِيَّ مِن الفِضَّةِ مَا يَكفِي لِكَي أوصِدَ أبوابَ السَّمعِ وأصُدَّ البَابَ فِي وَجهِ أصغَرِ نَسَمَةٍ قَد تَغتَالُنِي مِن تَحتِيْ . . شُعُورٌ مُتعبٌ حَدَّ النَومِ فِي حَربٍ والاستيقَاظِ عَلى مَنَبهِ عُصفورَةِ الرُّوحِ . . . تَخرُجُ مِن قَفَصِيَ الصَدرِيّ . .

دَعنا لا نُوغِلُ فِي الحِوارات ولا نُسهِبُ فِي الشَكّ ! . . وَكأنَّ عَصَافِيرَ عُمرِي بَتتْ أعشَاشَهَا فِي خَرَائِبِ الذَاكِرَةِ، وعَشعشَت فِي مَخَارِجِ الحُرُوفِ كَي تَقصِفَ كَلامكَ بِقُبلَةٍ . . يا أنتَ، خُيُولُ هَمَّتِي ضَالَّةٌ . . أجَرجِرُ أذيالَ الخَيبةِ عَلى الأرصِفَةِ فِي وضَحِ النَهارِ مُنذُ أطلَقتَ فِي مَدايَ صفَّارَةَ بَدءٍ !

لو أنكَ تَحتَرِفُ سَردَ الحِكَايَاتِ . . وَتجمّلُ أبطالَها بِتاجٍ وَصَولجَانٍ، سَتَرَى رُوحِي تَهيمُ بِأحداثِكَ وَتَطفو . . ، وَقَد تُبعَثُ الشُخوصُ فِي عَينَيَّ حيَّةً مِن جَديدٍ !

فَراغِي الكَبيرُ . .

يَجتَاحُ حَاجَتي إلى مُحَاوَلَةٍ أخيرَةٍ،

باجتيَازِ العَدَمْ !

فِي صَميمِي بُكَاءٌ،

وعَجزُ المَفَاصِلِ يوتّرُ وَمْضَ القَلَمْ !

يا مجَالَ الصِراعِ،

أستحلِفُكَ بما تبقَّى . .

مَن ذَاكِرَةٍ ودَمْ،

أن تَخُطَّ مَعَانيَّ نثراً أو ثِاراً . .

لكَ اختيارُ الزُمْرَةِ،

أو أن تَنحَازَ للنَدمْ !

وانتبه ! فَلا قُبَلَ مَسرُوقَةً مِن جَبيني فِي لَيلِ سَهَرِكَ، وَحِراسَتِكَ لهالَتِي . . سَتُعفيكَ مَن ذَنبِ الصُّدَاعِ !

. . أتمنّى لو أطيّرَ غربانيَ السُّودَ وأطلقَها لأبعدِ من خُطُوطِ كهرباءِ أعصابيَ المُتشابكةِ . . لا يسعُني أن أزيدَ السماءَ دُخاناً . . . ولا يُمكنُني أن أتعايشَ دُونَهُم مُنذُ استسغْتُ نعيقهُم في أُذنيَّ . . !

أنتَ بارعٌ في فتحِ المواضيعِ لكنكَ سيءٌ في إغلاقِها . . تُنهيها بالاستفهامِ ثمّ تنثرُ مئةَ علامةِ تعجُّبٍ . . تربطُ الإجابةَ بأمدٍ وتستقيلُ دُونَ جوابٍ !

لا أعلمُ ما الرّابطُ بيني وبينَ العناوينِ الضالّةِ، اتّخذتني عدُوّاً لها، وأنا . . من حنانيَ المُفرطِ ووحدتي المُعلنةِ، وجدتُ فيها لجُوءاً مؤقّتاً لكلِّ صباحٍ ومساءٍ . .

أشعرُ وكأنّ أضلاعي تتنازعُ بينَ لونينِ لا يلتقيانِ بأزهاري . . قاتمةٌ أنا حينما أُحاولُ النظرَ في احتمالاتكَ، وفاهيةٌ جداً عندما أبلُغُ خيارتيْ، لذا أُداومُ الإغلاقَ على ذاتي حينما تدخلُ طقسَ الصّمتِ وصلاةَ التأويلِ !

فِي الوَقتِ الذي لا تَسعَى لأن تَكُونَ فِيهِ أَميراً، لَنْ أَرقى إلى مُستَوَى الإمَارةِ فِي مَملكَةٍ قَائمَةٍ عَلى قَوانينَ شَائكَةٍ . . وَشَكٍّ . !

مَنْ يُريدُ العَيشَ يَفتحُ مرتبيهِ عَلى اتسَاعِهمَا، . . لكِنَّ الذي يَصِلُ إلى غُرفَةٍ مُغلقَةٍ عَلى أَصابعِ الكَلامِ ولا يَجِدُ مُلتجَأً لأشِعَةِ الشَمسِ، ولا نَافذَةً تُسَرِّبُ الليلَ أو القَمرَ . . فَلَنْ يَردعهُ الهُروب ناجياً بنفسِهِ ولا النُجُومُ التي عَهِدَهَا مَرجِعاً لتيهِهِ، فَكَانَت سَطراً لِمَقبرةِ أَحلامِهِ . . !

أُريدُكَ أن تَفهَمَني وَلَو لمَرَّةٍ واحِدَة ! أُريدكَ أن تَضعَ لِكَينونَتِي وَزناً أثقَلَ مِن أن يُمحَى بَعدَ ثَوانٍ . . ، أُريدُكَ شَخصَاً وَاثقَاً مَن مَرَايَاه، سَاطِعَاً باسمِه، وَاضِحَاً فِي دَربِهِ . . سَعيداً فِي مَسعَاهُ، أُريدُ أن أكونَ آمِنَةً مِن طَيشِكَ، سَالِمَةً من جُنونِكَ، قَريبةً مِن مَنَامِكَ، غَاليَةً عَلى قَلبكَ . .

فَلْتُمسِك بِيَدي جَيداً، لأنَّني قَد أَميلُ إلى الهَاوِيَةِ مِن الثِّقَلِ، وَكَافِئني بِوَردَةٍ كُلَّمَا اكتَمَلَ القَمَرْ . .

لا تُحطني بشوكٍ يُحاصِرُ فيَّ الكلامَ، فإنَّكَ في حَرَمِ صَمتي!
إياكَ والصُّراخَ قُربَ مَهدِ مَلائِكَتي.. حَتى لا تَبكيكْ.

..كأنَّ استقامَةَ أفكاري تُهمَةٌ مُستَحيلَةٌ أخوضُ بِها مُعتَرَكَ غَديْ.. وَحْديْ!

غَريبةً وَقَفتُ عَلى فوَّهةِ مُنعطَفٍ لمْ أعهدهُ مَوجوداً في مَساري اليومِيّ.. كَمْ يَبدو العُلوُّ مُريباً بِشَكلٍ يَجعلُني أُداري خُطواتي لأَلتزمَ الخَطَّ.. ولا أَحيدْ! إنَّ في صُورِ حَياتِنا مَشاهِدَ نَمرُّ عليها مُرورَ الكِرامِ.. لو أَنَّنا نَتعمَّقُ بِبَعضٍ مِن جَمالِ ما حَولَنا لكُنَّا أخضرَ مما نَبدو.. وأبيعَ من أن نَكونَ رَماداً..! إنَّني مشغولةٌ بالوُصُولِ إلى مَكاني في الوَقتِ المَطلوبِ فَحسبْ.. لو أنّي أعطيتُ لِنَفسي فُرصَةً لاجتيازِ الشُّعورِ بالمَهمَّةِ.. إلى خُطوةٍ غيرِ مُكبَّلةٍ.. لَبَدَت هَذه الطُّرقاتُ أيسرَ، لرُبَّما دَخلَتْ نَسْمَةٌ عَفويَّةٌ في مَجالِ الضَّغطِ، وأنعشَتني..!

جدارُ العَجزِ فيّ لا يعلو بسمَاءِ رِفعتِكَ . . مَهمَا تَدنُو نَحوَ قَافيتِي لَن تنالَ سَبَبًا واضحًا لِضبابيتي . . فَقد أعترِفُ بذنبٍ لم أرتكبهُ أو بكلامٍ لم أقلهُ . . أو نيّةٍ لم أعقِدِ العَزمَ عَليها . . ! نهايةُ المطَافِ أنني فِي خِضَمِّ الأحداثِ أُسدِي نَصَائِحِي لِخُطواتِي، ولكنَّ ثقلَها يُثنيها عَن استيعَابِي وُجهةً وَوَجهًا . .

أنتَ امتدادٌ لهذا النَصِّ فِي دَمي . . واستمرارِيَّةٌ لِنَزفِ كُحلِيِّ اللونِ عَلى صَفَحاتي . . فَاضبط إيقاعَكَ بِمَا يَتَنَاسَبُ وَصيغَةَ الحُلُمِ الذي أتمنّاهُ . . ! . . كفَاكَ لهوًا على السّياجِ الشَّائكِ، فإنَّ عَصْفَ الرَّعدِ . . قَريبٌ .

أثمّنُ فِكرَةَ أن نُسوّرَ الأشجَارَ بأحجَارٍ عَلى شَكلِ دُوار، لستُ أُسَاعِدُ بالجُهدِ، لَكِنَي سَأمُدُّ إليكَ يدِي الصَغِيرَةَ كُلَمَا نَهَرعْتَ فِي قَاحِلي صبَارَةً . . إن قَطفتَ لِقلبي وَردةً، أو وَأدتَ حُزنًا !

لَستُ أَجهَلُ الصَّيدَ وَإِنَمَا أُريدُ لَو تَسقُطَ مِن سَماءِ الليلِ إلى يَدِيَّ . . دُونَ أن أَصعَدَ إليهَا، مِن فَرطِ الحَظِّ . . نجمَة .

بَدَتِ الأَوضَاعُ تَخرُجُ عَن إطارِ الحُكمِ للجَدَلِيَّةِ، فَمَعَ كُلِّ نَبرَةِ صَوتٍ عَالِيَةٍ كُنتُ أَسمعُها كَانَ قَلبي يُوازِي مَوجَةَ البَرقِ . . بانفِجَارٍ !

أصعَبُ شُعُورٍ لِي هُوَ أَن أَراكَ تَدَّعِي الحِكْمَةَ المُطلَقَةَ، فِي الوَقتِ الذي أُدرِكُ فيهِ أَنَّكَ مَكشوفٌ عَلى مَفَاصِلِ المَرحَلَةِ . .

أَجِدُكَ تُجَدِّلُ لِي شَعرِي وَأَرَى طَيفَكَ يَفُكُّهُ لِي . . خِلسَةً ! !

عَلى استمرارِيَّةِ اللَّيالي أكتُبُني . . لا أُريدُ أن أُطوَى كَدَفتَرٍ قَديمٍ مُصفَرِّ الأَوراقِ مُغلَقٍ . . أُريدُ أن أَكُونَ مُستهلاً لِصَفحَةٍ بِحَجمِ السَماءِ، عِنوانِي أَرضٌ خَالِيَةٌ مِنَ الحُزنِ . . تَدورُ فِيها النُجُومُ وَ يَلمَعُ عَلى انعِكَاسِ جَبينِها . . قَمَرٌ !

يَتَراءَى لي عِنْدَ كُلِّ غُرُوبٍ أنَّ السَمَاءَ أكثَرُ حُمرَةً مِن دَمِي مُؤخَّراً . . يَبْدُو أن السَمَاءَ تَبكِي عَلى وَجَعِ احتباسِهَا لأنفَاسِ الصَّدَى . . ! دَعْنَا نَتَبَنَّى لَوناً يُشبِهُنَا وَلَو كَانَ أقلَّ انسِجَاماً مع مُخَيِّلَةِ الرَّمَادِ التي بَينَ أيدينا، دَعَنَا نَخرجُ عَن المُمكِنِ وَلَو بِعِبَارَةٍ غَيرِ مَفهومَةٍ لِوَصفِ مزاجِنا . . دَعنَا نَخرجُ! ونُطْبِقُ مِن وَرائنا البَابَ!

تَبَنَّيتُ الحُرُفَ لي مَلجَأً مُنذُ فُتِحَتْ لِعَصَافِيرِي حَيِّزاً للقَلَقِ . . مُنذُ اشتَقتُ لِمَعالِمَ غَادَرَت مَعنايَ إلى سَطرٍ جَامِدٍ . . وَكَأنَّ كَلِمَاتي مَا عَادَت تَجيدُ الطَّفوَ عَلى سَطحِ بُحيرَةِ الدُّموعِ . . ولا الغَرَقَ فِي قَاعٍ مِن نُجُومٍ وَأَلَقٍ . . .

السَّطرُ تلوَ السَّطرِ دوماً والفَواصِلُ مِفتاحُ لأحداثِ الحَرَكَةِ . . والنُّقطَةُ بَابٌ مَغلَقٌ لِنهايةِ النَصِّ المَنقوصِ حِبراً أو المَسكونِ بالظُّنُونِ . . ! وإنَّ حَياتي لَمزيجٌ ثَقيلٌ مِن إشَاراتِ المُرورِ . . . لذا أُريدُ أن أكونَ فَرَاشَةً لا تُقيّدها سِلسلَةٌ ولا يَختَصِرُهَا لَونٌ . . ولا اتّجاه وُجُوبٍ .

. . خوفي على جناحيّ الثّقة التي تُحاول الالتئام موضع الظّهر، تستوقفني ضربة، ويُدهشني الألم . . فأُغنّي مواساةً لها، وأسأل لدموعها المغفرة.

واقفةٌ على شرفة حُلم أغصانُه يابسةٌ، أرمقُك بُعد رصيفين بنظرة باهتة، كأنّك تستجمعُ أسئلتك الليليّة، تتلفّتُ خوفاً من مصيدة ما . . ! ، سِر بجانبي فلا خوف عليك طالما كُنتَ تُجيدُ تسويةَ اللامُبالاة بما فيك من بُرود، لا تقف فزاعةً تُراودُ عصافيري عن الاقتراب ! انزعْ عنك حُجبك السوداء، فمهما اختبأتَ أرى عتمتك ! أعُدُّ ضُلوعك . . وأقرأُ بوضوحٍ مكنونَ مخاوفك . . . وأُصوّبُ نحوك !

أشعرُ بعينٍ كبيرةٍ تُطاردُني أينما حللْتُ، تكبرُ بمجرّد أن أكونَ في حيّزك . . وتبدو مُغمضةً حينَ أنامُ . . . ! قد تكونُ هواجساً من كابوسٍ قديمٍ . . أو ربّما هي حقيقيّةٌ بالقدْر الذي يُحيطُنا بنظرةٍ غاضبة !

مَا بينَ هُدنَةٍ ليسَ مِنهَا رَجَاءٌ، وَبَينَ رَجَاءٍ لا يُوفّي للهُدنَةِ بندَ انتظَارٍ، أَجِدُني عَالقَةً بينَ مَخَاوِفي وَبَين أُمنِيَاتِي . .

. . أشعُرُ أنني لمْ أسقُط وَحدِي فِي عَميقِ الأَسَى، وَأنَّ لِمَلامِحِكَ فِي قَعرِ بِئرِي نَصِيْبٌ . . . !

المَزاجُ العَامُ المُسيطِرُ عَلى بَثّ مَوجَاتِ غَضَبكَ يُعَادِي تَردُّدَاتِ بِثّي للكآبَةِ، ولأنَّ الصّدامَ مَا بَينَ كَلامِكَ وَصَمتي، فَسُكُونُكَ وَ ضَوضَائِي لا يُولّدان غيرَ الصَّدمَةِ . . أَجِدُنَا مُتَعَادِلَينِ، لَكِني لا أَقبلُ بالهَزيمةِ، فأتوّجُ نَجَاحِي بالبُكَاءِ، ولأنَّكَ لا تَقبَلُ بالهَزيمةِ . . تَمْسَحُ عَني دُمُوعِيْ . . وَتَحْنُو !

لِلجُرُوحِ الصَّغيرةِ فِي أَصابعي سِرٌّ، لا يُمكِنُني الإفصَاحُ عَنهُ بالكَلامِ . . يُمكِنُني وَحَسبُ الاستعَانَةُ بأَحمَرِي . . كَي أكتُبَهُ !

لِـمَ قد أبتسِـمُ؟ ! لَستُ بِصَاحِبَةِ سَعَادَةٍ . . إنِي – وَالعِلـمُ عِندكِ يا مُدوّنَةَ الوَجَعِ – لَصَاحِبَةُ مِرسَالَةٍ . . !

أشـعُرُ أَنـني مَفقـودَةٌ . . لا فَاقِـدَة ، وكَـأنّي أَبحـثُ عَـن شَـيءٍ يُشبِهُني . . لِمَاذا أَشعُرُ وَكَأَنني مُهمَلةٌ إلى هَذا الحَدّ ؟ أرغبُ بأن أَستعيدَ وُجُودِي . . لَطَالَما كُنتُ مُثقلةً بالحُزنِ . . أُريدُ أَن تَكونَ لِي عَصاةٌ أستنِدُ عَليها وَأقوِمُ أَضلاعِي ، وَلو أَمَامَ مَرايايَ . . مَا بَالِي أُمرّرُ الأَيامَ بِهَـذا الشَّـكلِ ؟ أَصـغرُ أُمنيـاتِي أن يَنتـهِي الشَّـهرُ دُون عَجـزٍ فِـي المِيزانِيَـةِ . . وَأكـبرُ مَخَـاوِفِي أن أَتلاشَـى دُونَ أَن يَنتبِـهَ إلى اختِبَـائِي أَحَدٌ . . . . !

لا تَمِسَّ دُمُوعِيْ ! إنها نُجُومٌ تَهدِينِي لِمَنامٍ أَمِينٍ قُربَ كَوكَبٍ مِن سُكَّرٍ . . هوَ الأبعدُ مِن نَيزَكِ جُنونِكَ ! قَد تُصَابُ بِلعنَةٍ لا حَلَّ لَهَا ولا حِكَايَة . . تُحَوّلكَ لِضِفْدَعٍ أَزرَق !

أَشعُرُ بالعَجزِ مِن تَوْرِيثِ كَلِمَاتِي لسَطرٍ هَشٍّ . . وَكَأَنَّهُ مَا عادَ فِيَّ مَعنىً يُؤدّي حُروفَهُ بِهَامِشِ مَا لي مِن مَسَاحَةٍ مُغلقَةٍ كَحَدِّ السَّيفِ الفَاصِلِ بينَ وَاقِعِكَ وَعُيونِي . . !

لِلحُزنِ فِينَا جَسَدٌ وَظِلٌّ، وَلِلفَرحِ قُربَنا سِكّينٌ وَأَمرُ اغتِيَالٍ !

أَشبَهُ بِعُصفُورَينِ لا يَعرِفَانِ بَدايتَهمَا ولا رَجَاءَ نِهَايتِهمَا . . لَكِنَّهُمَا يُرِيدَانِ أَن يُحَلِّقَا مَعاً إلى الأَبَدِ . . !

مُمَارَسَتِي الخَطَأَ بِحِبرٍ أَسْوَدَ . . هِيَ نِيَّةٌ بِالخَلاصِ مِن الرِوَايَةِ المُفتَقِرَةِ حَدَّتَكَ، وَمَغزَىً يُكَافِئُ صُمُودِي عَلى شَائِكِ العُبُورِ !

. . لَمْ أَبدُو هَارِبَةً مِن مَصِيرٍ لا يُشبِهُنِي وَلا يُنصِفُكَ . . ؟

لا شَيءَ يَشفَعُ لي فِي حُزنِي غَيرَ كَلِمَةٍ عَلى سَطرِ البُكَاءِ، تَأتِينِي مِنكَ مُختَزِلةً وُعُوداً جَدِيدَةً! . . يَصدَحُ فِي رَأسِي أَلفُ عُصفُورٍ يُطَالِبُونَ بِالهُدوءِ الذي يُخَفِّفُ رَوعَ أَجنِحَتِهِم . . لَيتَهُم يَطوفُونَ فِي سَمائِي كَأُغنِيَةٍ تُشبِهُ إِيقَاعَ السُّكُونِ الذِي غَمرَتهُ بِعَطفِكَ ذَاتَ عَاصِفَةٍ!

مُنذُ البَدءِ خُضتُ مَعَارِكِي وَحدِي، لا أُنكِرُ أَنَّ البَعضَ كَانَ لِي دِرعاً حَصِيناً، إِلا أَنَّنِي آثَرتُ الهُروبَ مِن كَونِي الجُندِيَّ الأَضعَفَ فِي الصَّفِّ الأَوَّلِ مِنَ الجَبهَةِ، وَاِرتَأَيتُ بِأَن أَحتَلَّ الهُجُومَ بِصِفَتِي وُجُوباً، وَجهاً لِوَجهٍ . . حِرصاً عَلى مَن كَانُوا لِي دِرعاً، وَخَوفاً على مَا تَبَقَّى مِنِّي . . ! ولا شَيءَ يَتَّضِحُ فِي سَاحَةِ الكَلامِ بَعدَ كُلِّ هَذِهِ الضَرَبَاتِ المُوجِعَةِ، مَا هِيَ إِلا بِضعُ صَفَحَاتٍ وَيَنتَهِي مَا فِي دَاخِلِي مِنَ الأَسوَدِ . . وَلَكِنَّهُ قَد يَنتَهِي خَارِجَ الغِلافِ . . . .

وسَدِّدْ لِي أَمَاناً . . لأَنَامَ وَمِلءُ عَينَيَّ النُجومُ لا الدُمُوعْ . . !

لِـمَ كُلُّ شَيءٍ يُفْرِحُ قَلبِي يَخُونُهُ الوَقتُ فَتَكبُرُ عَلَيهِ الأَيَامُ وَ تَشيخُ . . وَتصدأُ ؟ ! وَكَأَنَّ فَرحِيَ الصَّغِيرَ بِأَقَلِّ الأَشيَاءِ يُسلَبُ مِنِي بِقُوَّةِ القَبضَةِ، وَيُوهَبُ لِعُصفُورٍ هَارِبٍ مِن مُدُنِ الأَحْلامِ . . .

إِنَّكِ يا بَجَعَتِي السَّوداءَ وَمَرَناً يُرجَّحُ بِثِقَلِ الكَونِ دَاخِلَ صَدرِي، مُحَاسَبَةٌ أَنتِ فِي وُجُودِكِ ضِمنَ حَيِّزِ التَّنفِيذِ تَحتَ سَقْفِ اللُجُوءِ، كَمَا هُوَ مُصَنَّفٌ سَعيُكِ فِي نَهَارِي . . تَعَبْ .

إِنَّ بِي مَن تُخمَةِ الأَسبَابِ مَا يَستَدعِينِي لِوَقفَةٍ عَلى شُرفَةِ الوَصَايَا، وَ لَستُ التِي تَحْمِلُ نَوَايَاهَا مَطوِيَّةً فِي رَسَائِلِ البَرِيدِ .

لا فَتَاعَتِي بِالسَّلامِ أَفَادَتنِي بِعَزِيمَةٍ . . وَلا حَاجَتِي لِلحَربِ أَعطَتنِي الحَيَاةَ . . !

وَكَأَنَّ نُبُوءَاتِي بِالسيرِ عَلى الغَيمِ لَمْ تَطَلْ خَطوِي . . ! إِنَمَا كَانَت مَكَائِدَ مِن السَّهوِ العَبَثِيِّ فِي فَرَاغِ الأَفكَارِ، أَعْلَمُ الآنَ أَنَ هَذا لا يُوَاتِي ضَجِيجَ الوَمْضِ فِي رَأسِي وَلا صُدَاعَ الدَّفقِ فِي قَلبِي، . . إِنهَا فُرصَةٌ لِلغَرَقِ البَطِيءِ فِي وَحلِ الذِّكرَيَاتِ، لا يَستَطِيعُ المُستَلقِي عَلى سَرِيرِ مَوتِهِ فِيهَا أَن يَتَكَيءَ عَلى حَاضِرِهِ بِغَيرِ نِدَاءٍ مُوَجَّهٍ لاسمِهِ !

إِنَمَا أَجِدُنِي استَهلَكتُ حَتى حَقَّ الدِّفَاعِ عَن وُجُودِي . . ! أَشعرُ بِانقِبَاضٍ نَاحِيَةَ الخَاصِرَةِ . . وَبِتَخثُّرِ الحِبرِ مُنحَنَى الكَلامِ !

لا أَحتَاجُ أَكثَرَ مِن دَربٍ وَاحِدٍ وَاضِحٍ، لَستُ التِي تَطلُبُ المَسَاحَاتِ الخَضرَاءَ وَطَناً ، وَلا السَبِيلَ الوَرِدِيَّ دَرَباً إِلى الأَبَدِ . . أُؤْمِنُ بِتَغَيُّرِ لَونِ السَمَاءِ دَائِماً . . وَانعِكَاسِ مِزَاجِهَا عَلى أَرضِ اللجُوءِ، لِهَذا . . أَجِدُنِي أَطلبُ المُمكِنَ مِن يَدِ المُستَحِيلِ البَخِيلَةِ، أُرِيدُ طَرِيقاً وَاحِدَةً أَرَاهَا بِعَينِي قَلبِي وَأَستَدِلُّ مِن ضُوئِهَا عَلى مَخرَجٍ لِتَعَبِي . . فَهَل لَكَ أَن تُذَلِّلَ شَوكَ المَرحَلَةِ بِنَثرِ النُجُومِ عَلى جَانِبِي العُمْرِ؟

صَدَى الأَسئِلَةِ المَسَائِيَّةِ يُبَاغِتُ صَحوِي وَيَستَغِلُ مُفَاتِيحَ النَبضِ لِيُقْفِلَ عَلى النَهَارِ مُسرِعَاً قَبلَ أَن يَنهَارَ وَقتِي . . لا بَأسَ بِنَومٍ قَرِيبٍ مِن سَقفِ الإِجَابَاتِ، وَلَكِنَّ السَّمَاءَ أَبعَدَ مِن أَن أَلمِسَ وَجعَها بِأَصَابِعِي ! وَإِنَّ وَجْهَ القَمَرِ مَكسُوْرٌ . .

مَرفُوعَةٌ عَلى عَاتِقِ الحُلمِ وَلَيسَ لِي نُجُومٌ قَادِرَةٌ عَلى أَن تَثنِي سَلالَهَا إِلى أَعلى . . فَمَاذَا عَسَايَ أَقطِفُ مِن مُنحَدَرِ الغَفْوِ ؟

غَادْر بِمَا فِي جَعْبَتِكَ مِن قَصَصٍ إِلى أَرْصِفَةِ الوُعُودِ التِي أَتَيتَ مِنهَا مُحمَّلاً بِأَحلامِ طِفلٍ وَاهِنْ !

لا شَيءَ يُثنِينِي عَنِ الصُّرَاخِ إِن غَضِبتُ وَدَاسَ أَحَدٌ عَلى ظِلِّي، وَلا شَيءَ يُحَرِّضُ فِيَّ التَبَسُّمَ أَمَامَ مَرَايَايَ غَيرَ بَرِيقِ الدُمُوعِ !

لا شَكلَ مُحدَداً للجوهَرَةِ التي تَليقُ بي، إنَها تُشبهُ النَجْمَةَ المَقْطُوفَةَ مِن عَرشِ البَلادِ، بَلْ هِي أَقربُ إلى دَمعَةٍ تَجَمَّدت بَعدَ انصهارِ قَلبٍ . . أو رُبمَا . . هِي وَردَةٌ مِن عَتيقِ الزَمَانِ تَحجَّرت بِفعلِ كِتمَانٍ وانغلقَتْ لتَبدو بِهذا الشَكلِ . . فَريدةً ! هِي لُغَةٌ صَريحةٌ لِبدءِ مِراسِمِ عُرسٍ مُؤجَلٍ . . !

كُنتُ التي تَرْجُو مِن وُجُودِكَ دَفقَةً غَيرَ مُنتَهيَةٍ مِن البَنفسَجِ تَأخُذُ تَشكيلَ المَرحِ فِي الرُّوحِ . . . . ؟

لا أحدَ يتوّجُ انتصاراتِهِ، إن لَـمْ يَكُن هُنَاكَ مَن يُصَفّقُ لَكَ وَيَبتَهِجُ لارتدائكَ التَاجَ، لَن تَرى قِيمةً لَهُ . . ! هذا مَعنَايَ المَفقُودُ مُنذُ اختفَاء هَالتي . . لا أُريدُ تَاجاً ذَهَبيّاً كَي تُقلّدُنِي إيَاه، أُريدُ تَاجاً مِن وَردٍ تَصنعهُ بِيَديكَ، مِن نُجُومٍ تَقطِفُها بِيَديكَ، مِن رِيشٍ تُمسّدهُ بِيَديكَ، وَمِن كَلِمَاتٍ تَنسجُهَا بِأَصَابِعِكَ عَلى جَبِينِي . . . تَمْتِمَةً !

لَيسَ فِي جَعْبَتِي انتِصَارَاتٌ كَبِيرَةٌ، لَكِن أَشعرُ أَنَ أَكبرَ نَصرٍ لِي هُوَ الاستِمرارِيَّةُ بِالزَحفِ البَطيءِ عَلى هَامِشِ ظَرفِكَ . . ، لا أُريدُ هَدِيَةً مُزَخرَفَةً بِشَرائِطَ لَمَّاعَةٍ ولا بَاقَةَ وَردٍ مُنعَمَةً بِالنَدَى . . أَنتَ مُكَافَأَتِي التي عَلى هَيئَةِ عِقَابٍ !

فِي دَاخلي عَجزٌ عَن الرَقصِ عَلى إِيقَاعِ مَا يَلزَمُ . . وَرَغبَةٌ مَجْنُونَةٌ بِالحَرَكَةِ خَارِجَ الحَفلِ، نَسيتُ أَن أُغنِيَتِي مُكبَّلَةٌ، وَلَستُ أَستَطيعُ غَيرَ السُّقُوطِ فِي مَجَالِ النَوْمِ .

كُنْ عَلى قَدرِ الغَفوِ الأَمِينِ لأَمرُنُو نَحوَ مَنَامِكَ . . وَأُسَلِمكَ نَرمَامَ الحُلْمِ !

تبيَّنَ بَعد بَحثٍ قَصيرٍ أَن طَائِرَ السُنُونُو يَنَزَّمُ بِالشَمسِ وَيُرِنّمُ لُحَناً قَصيراً بِمنقَارِهِ البُرتقَاليّ . . . ، هَل خيَّبتُ أَملَكَ يَا صَغيري باعتقَادِي أَنَّكَ كَائِنٌ مَشبوهٌ بِالحُزنِ ؟ بَلْ خَطؤُكَ لا تتقَائك قَتَامَةً أَكبرَ مِمَا تَحْتَمِل . . .

الرسالةُ التي غرّدَ بها السنونو صديقُ وحدتي الجديدُ تبدو مُبهمةً . . وياليتهُ يُترجمُني لأدلّهُ على المسافةِ الفاصلةِ بين زمانِ ظلّي المُكبّلِ بالأمرضِ . . وزمانِ حريّتهِ المُفعمِ بالزُّمرقةِ . . !

كيفَ يُمكنُ للنجماتِ التي تُزيّنُ سقفَ غرفتي أن تكونَ وسيطاً سماوياً لأحلامي . . دونَ القمرِ ؟ لقد سقطَ مغشياً عليهِ . . ثمّ غيّبهُ ثُقبٌ أسودْ !

لا تفاصيلَ تُحكى بعدَ هبوبِ تلكَ العاصفةِ، فعلى ما يبدو وراءَ كلِّ غيمةٍ مطرٌ . . كنتُ أثقُ بأنكَ غيمةٌ صيفيّةٌ . . لا تُمطرُ أملاً . . فقد علمتُ بعدَ كلِّ الفصولِ الخريفيّةِ التي اجتزتُها معكَ أنّ الشتاءَ غالباً من نصيبِ العمرِ فيكَ، أمّا الصيفُ . . فكنتَ الغالبَ على أمركَ فيهِ . . والربيعُ لاذَ بالفرارِ منكَ . .

. . لا أُريدُ أَن أنظرَ إلى مَا آلت إليهِ الأُمورُ بِعَينينِ مَلائكيَّتينِ لأنَني بِكُلِّ حَالٍ لا أَملِكُهمَا . . وَإنَّ اللونَ الطَاغيَ عَلى رؤايَ أَسوَد . . سَأبقى عَلى عَهدي بالثَّباتِ عَلى نُصُوصِي فِي وَصفِ الغُربَةِ، سَأفْعَل هَذا لِيَقيني بَأنني سأُكافأُ بِقدرِ مَا تُفقدُني الذَاكِرةُ وَ تمحُو الذِكرَيَاتُ، وَإلى حِينِ ذَلك الوَعدِ . . سَأَصمُدُ بِعَينينِ مَفتوحتينِ عَلى الُجرحِ وَسَأَطرَحُ دَمِي الأَحمرَ عَن سَبْقِ دمَارٍ . . .

أَنَا لا أُفكِّرُ فِي هَلاكِ النَص، إنَمَا أَبحَثُ فِي الأَنحاءِ عَن مَاذَةٍ أَروي بِها شَغفَ السَّطرِ، مَا عَادَ بإمكَاني أَن أقتبسَ حَدَثاً وَ أَدورُ حَولَهُ بِفُستَانِ أَميرَةٍ مِن خَيَالٍ، لأنَ الوَاقعَ مُسَيطِرٌ عَلى مَنَامِي قَبلَ صَحوي، مَا إن أَميلُ نَحوَ قَلبي المُستَعَارِ مِن بَجعَةِ الحِكَايَة . . حَتى يَبدأُ بالأَنين . . ! وَكَأَنَ التَّجويفَ النَابِضَ فِي دَاخِلي مَا هُوَ إلا بُؤرةٌ لِرَمَادٍ مِن عَتمٍ أَسودَ يَسيرُ مَعَ دَمِي !

. . كُنْ عَلى عَهدِكَ بِبُلوغِ الإمَارَةِ كَي لا أفرَ فَرَاشَةً هَارِبَةً مِن ضُوْءِ مَنَارَتِكَ !

إني أخافُ الوردَ حين تُقدمهُ إليّ . . سأفترضُ أنّ لها شوكاً وأنّ في الشوكِ سُمٌ وأن عُودها سوطٌ وأن بتلاتها . . نزْفُ دماء ! ، إنه المعنى الواضح بيني وبينك، لهذا حينما أنظرُ إلى وردتك فإني أُفكّرُ بالمكيدةِ التي تُدبّرها لي، وأظنني أخذتُ نصيبي من الشوكِ كثيراً، لأُصبحَ على هذا الحالِ من الحرص . . ! لقد احترفتُ الوقوعَ في المصائدِ مُنذ أن فتحتُ عيني وتعثّرتُ بالخُطوةِ الأُولى . . مُنذُ ذلكَ الحينِ وأنا أقضي عُمري بينَ الحُفرِ . . أو مُختبئةً في كهفِ مخاوفي . .

وكُنتُ حقاً أرغبُ بأخضرِ ما يُمكنُ . . ولكنْ حدّثْ بأزرقِ ما تُريدْ ! . . لا بأس يا أنا بعضُ لونٍ حتى وإن كانَ لا يروقني . . إن كانَ يُوفّي نُقصانَ ما بي من ألوانِ الطّيفِ . .

لا أُريدُ لهذهِ الأيامِ أن تمُرّ مُرورَ الكرامِ، فكمْ من كرامٍ مرّوا ولمْ يُؤدّوا يمينَ التحيّة !

. . هُنَاكَ ضُوءٌ كَافٍ لِتَسْتَقِرَّ فِكْرَةُ الأَمَانِ فِي قَلبِي، وَتُثْنِي أَعشَاشَ عَصَافِيرِهَا فِيَّ، قَبْلَ أَن أَطِيرْ!

كَيفَ لِي أَن أُحَاصِرَ وَصفِي؟ الأَمرُ أَشبَهُ بِالبَحثِ عَن خُيُوطِ ضُوءٍ فِي وَضَحِ النَّهَارِ! مَا إِن أَجِدُ السَّهمَ. . حَتى أُمْسِكَ بِهِ، وَأَتمَنَى ألا يَطَالَهُ أَحَدٌ، وَلِكَي أَستحوذَ عَلَيهِ وَحدِي وَيُصبِحَ مُلكاً خاصاً بِي بِصَكِّ أَبدِيّ، أَتشبثُ بِهِ بِكُلِّ مَا أُوتِيتُ مِن نَبْضٍ. . وَمَا إِن يَحْصُلُ هَذا حَتى يُصبِحَ الخَيطُ جُزءاً مِن كِيَانِي لأَتمِمِي وأُضِيءُ بِكُلِي إِلَيهِ، . . فَإِن إِنطفأَ يَنخفِضُ إِيقَاعُ وَمضِي وَأَنجَرِفُ بِبُطءٍ إِثرَ غَصَّةِ انهِيَارِهِ. . وإِن ضَاعَ مِنِي سَأَدورُ حَولَ نَفسِي أَلفَ مَرَّةٍ حَتى أَسقطَ إِثرَ دُوَارٍ مَعَه، وَانِي لو تَأَخرتُ قَلِيلاً بَعدُ بِامتِلاكِهِ. . قَد أَتعثَّرُ بِثُقبٍ أَسودَ وَيَلْتَفُّ حَولَ عُنُقِي خَيطُ نُورٍ فَائِضٍ. . وَأَموتُ إِثرَ قَرَارٍ!

. . . مَاذَا لَوْ. . . تُعِيدُنِي لِرُشدِ السَّطرِ وَتَرفَعُنِي مَقَامَ الشَّطرِ؟!

أشعرُ أنَّني عَالقَةٌ بينَ سَمَاءٍ قُرمزيَّةٍ وَأَرضٍ رَطبَةٍ، أَودُّ لو أكنُسُ عَني غُبَارَ الشُعُورِ . . لا أَرغَبُ بالنَظَرِ إلى وَجهي . . أَخَافُ أن أُدرِكَ أَنني دُونَ زِينَتِي المُوجَبَةِ، وَدُونَ عِيدي ! مَنْ سَيَمنَحُنِي العِيدِيَّةَ وَالأُمنيَةَ ؟ أبعدُ مِمَا أَتخَيَّلُ أَمْ أَقربُ مِمَا يَكُوْنُ . . ؟

أَمرِي غَرِيبٌ، لَكِنَّكَ العَجِيْبُ فِي كُلِّ أَمْرٍ . . . !

إنَّ الشِتَاءَ عَلى وَشَكِ الوُصُولِ، كَي يَفرِدَ أَجنِحَتَهُ فِي السَمَاءِ لِيَخطِفَ بِضَبَابِ نَوايَاهُ القُطنِيَّةَ . . النُجُوْمَ !

أَحتَاجُ بُوصلَةَ حُروفٍ تُبعَثُ إلى قَصائِدِي فِيكَ، وَإنكَ بِحَاجَةٍ إلى أَلفِ دَلِيلٍ كَي تَتبَعَ عَنَاوِينِي . . إن أَعلنتُ فِي وَجْهِكَ الإضرَابَ . . !

وَلستُ أُبلغُني إلا بِجُرحٍ نَاحيَةَ الدَّفقِ، لا شَيءَ يُشبهُني فِي المَسرحِ . .
لا شَيءَ يُؤَدِيني فِي الحَيَاةِ . . ! إنِني أَشبَهُ بِشَبَحٍ لا بَصمَةَ لَهُ ولا خُطوَةَ . .
أَثيرِي بَارِدٌ جِداً ، حَتى الضُوءُ لا يَمْنَحُنِي وُجُوداً فِعليّاً ، عَفواً ! . . أَينَ ظِلّيَ الآنَ ؟

فإنَني مَحضُ بُقعَةٍ مِنَ الحِبرِ، تَبثُ شَهِيقَهَا بِالصَمتِ مِثلَ صَفَحَاتٍ بَيضَاءَ، وَمَزفِيرَهَا بِالنَزفِ . . كَلِمَات . . !

فسّرِلي رَسَائِلكَ المُؤجَلَةَ، أَمَانِيكَ المُبجَلَةَ . . حَاوِل أَن تَخرجَ مِن أَدنَاكَ كَي تُبصِرَنِيْ !

هَل تَعلَمُ أَنَ العِيدَ مُجَرَدُ كِذبَةٍ ؟ . . مَحضُ دُعَابَةٍ تَطرُقُ بَابَ الجَمِيعِ، وَحِينَ تَصِلُ إلى بَابِي . . تَأتِي بِسَلَّةٍ مُفرَغَةٍ مِن الحَلوَى . . !

فِي القَلبِ لَكَ قَصِيدتَانِ مِن نُورٍ، لَكَ أَن تَختَارَ أَيُّهُمَا أَسمَى لِجُرحِكَ . . أُولاهُمَا وَصفٌ لِشُحِّ الوَمِيضِ عَلى أَغصَانِ لَونٍ مُترَفٍ بِالظِلِّ . . وَأُخراهُمَا مَعنىً مُقَيَّدٌ بِتَأرِيخٍ آجِلٍ لِوُعُودِكَ الحُرَّةِ . .

. . أَخبَرُونِي أَنَّ حَمَامَتِي أَتَت بِالبِشَارَةِ وَطَرَقَتْ عَلى زُجَاجِ نَوافِذِي، لَكِنِّي مَا فَتَحتُ لَهَا، ذَلِكَ أَنِّي غَفَلتُ عَن مَوَاعِيدِهَا . . فَطَارَتْ!

. . . كَمْ أَوَدُّ لَوْ أَسقُطَ مِن شَاهِقِ المَعنى، . . . . . وَأَتَّضِح . . . !

التَّأكِيدُ عَلى الجَوَابِ الثَّابِتِ لا تُرافِقُهُ جَدلِيَّةٌ تُوقِظُ التَّرَدُّدَ، فَكَمْ مِن عَصَبٍ فِي تَلَفٍ جَرَّاءَ تَأجِيلٍ فِي الوَصفِ، وَكَمْ جُرحٍ لَمْ يُعجَبْ بِقُدرَةِ وَمضِي عَلى تَرقُّبِ مَا يُلائِمُهُ لِيَلتَئِمَ . . . ؟

بَاتت أَرضَي لا تَقبَلُ بِغيرِ المُفَاوَضَاتِ عَلى الرَّغمِ مَن أنَّ طَاوِلَتِي مَقلوبَةٌ . . ! يُوشِكُ الصَّبرُ الذي شيَّدَ مُدنَ صبَّارِهِ فِي صَحرائِي أَن يُغلَبَ عَلى أَمْرِهِ !

إنَّ شَمسِي مُنهَكَةٌ حَدَّ الكُسُوفِ . . وَإنهُ لَقَمرِي الغَائِبُ عَن سَمَائِي، بِتُهمَةِ خُذلانٍ لا خُسُوفٍ . . . . !

. . . وَكَأنَّ حَقيقَةَ وُجُودِي كَرَاوٍ لِلحِكَايَةِ، بَاتت أَشبَهَ بِأَزمَةٍ تُؤدّي بِي وَبِعَنَاوِينِي إلى مَأزِقٍ . . ، عَلَيكَ أن تَتَقَبَلَهَا - أَيُهَا السَّطرُ - بِكَامِلِ امتِدَادِكَ، بِوَاسِعِ صَدْرِكَ .

أَمَا آنَ لَكَ أَنْ تُسوّي لَنَا جَدولاً زَمَنِيًّا يَسيرُ وَدَورَانَ الأَرْضِ ؟

بِعُمقِ مَا أَجِدُ فِي غَامِقِ عُيونِي بِانعكَاسِ المَرَايَا مَحضُ أَضواءٍ مُرِيبَةٍ تَكَادُ تَمِيلُ إِلى جِهَاتٍ أَجهَلُهَا . . ثُمَ تَنطفِئُ عِند ارتطامِهَا بِعَتَمَةٍ ! . . هَلْ هِيَ بَقَايَا لِشَارِ قَمَرٍ انفجَرَ عَلى سَطرِ وُعُودِكَ . . ؟ أَمْ دُمُوعٌ مَالِحَةٌ تَبَلوَرَت بَعد انجِمَادِهَا عَلى بَردِ رُدودِكَ ؟

كَمْ أَبدو وَحِيدةً لأَلعَبَ دَورَ الرَاوِي وَأَقُصَ عَلَيَ الحِكَايَاتِ ! لا أَحدَ يَدعونِي لِدُخُولِ العَنَاوِينِ وَلَيسَ هُنَاكَ مَن يَقِفُ عَلى الشُرفَةِ لِيَقُولَ لِي "مَرحَى" وَهُوَ يُلَوِحُ بِيَدِهِ، . . بَعضُهُم سَاكِنٌ فِي جَلِيدِ رُوحِهِ . . وَالآخَرِ ينسجُ النَارَ مِن بَينِ أَصَابِعِهِ . . وَكُلُ الأَحزابِ تُطَالِبُنِي بِأَنْ أَهدَأَ . .

أَلا يُمكِنُكَ أَن تَكُونَ بِحَجمِ أَحلامِي وَلَو لِغَفوَةٍ قَصِيرَةٍ ؟ كُنْ فَوقَ شُبُهَاتِ الحُزنِ وَلَو لِمَرَةٍ، كُنْ سَيِدَ المَوقِفِ وَأَنهِ الحَربَ التِي رَكَلتَ إِلَيهَا القُنبلَةَ بِقَدَمَيكَ . . !

حَاوَلتُ تفقُّدَ لونِ قلبي فوَجَدتُهُ ليس كَمَا ينبغِي . . وَجَدتُني كُلَّما فعلتُ جَميلاً تقَاضَيتُ مقابلَهُ مَرصِيداً غَيرَ قَابلٍ للصَّرفِ بعُملَةِ فَرحٍ! ، مِنَ المُضحِكِ أَن أَبكِيَ عَلى فِكرَةٍ إيجابيَّةٍ كلَّمَا أَحكمتُ قَبضتِي عَليها اختفَت كالسَّرَابِ . . ! إنهُ أَلـمٌ يُشبهُ كَمَالَ النَدمِ . . بِتَمنّي العَدَمِ !

إنهَا الحَربُ دَاخِلِي، لا يَستطيعُ أَحَدٌ الطَرقَ عَلى بَابِ المَعرَكَةِ . . أُستنزَفُ دَمَاً وَكَلِمَاتٍ كُلَّما أَسرعتُ إلى جِهَةِ الخُروجِ . . ، وَإنها لَحَربٌ أُخرى خَارجيَّة تَتصيَّدُنِي فَرِيسَةً لِتَتَغَذَّى عَليَّ حُزنَاً أَسوَدَ . . ! وَكِلتَا الغَارتينِ المَفتوحَتينِ مِلأتَا عُيونِي . . يَفتقِدَانِ لأَسبَابِ الشُّعلَةِ، تُهَاجِمُنِي الأُولى مِن نَاحِيَةِ عَتَبَةِ الفَرحِ المُزخرفَةِ بوردِ الذَّاكِرَةِ، بينَما الثانيةُ تُطلِقُ نَعيقَهَا كَالبُومِ قُربَ أُذنيَّ لأصرُخَ . . يَتمُّ التَلاعُبُ بِي عَلى مَسرَحٍ خَالٍ مِن النُورِ، حَسبِي أَنني دُميَةٌ وَحَركَتِي تَفويضٌ مِن خُيُوطٍ . . يَستَوقِفُنِي قَدرِي لاستعراضِ رَقصَتِي بجعَةٍ سَوداءْ . .

أَبحَثُ مِن حَولِي عَن معنًى يوفّيكَ . . وَتَبكِي كُلَّ لَيلٍ كَي تَحْتَوِينِي . . لَمْ يَهنَأ مَنَامِي رُغمَ ذلِكَ ، إنّما غِبتُ عَن وَعِيي فِيكَ !

فإنَّ السَّطحَ الرَّاكِدَ لِبُحيرَةِ الوَجعِ يُنذِرُ بِإعصَارٍ ، وَآنَ لِبَجعَتِي أَن تَسْلُكَ خَطًّا يَقبلُها وَإيّاكَ ضَحيّتَينِ لِصَاعِقَةِ رَعدٍ وَاحِدَةٍ ! ! .

مَاذا أفعَلُ ؟ . . هَل أَرميكَ مِن أَعلى قِمَّةٍ لِيتهشَّمَ قَلبُكَ ثُمَّ أَرثِيكَ بِقَصيدَةٍ جَميلَة ؟ ! أَمْ أَخطِفكَ مِن المُشكلاتِ وَأُخبِئُكَ بِقُمقُمٍ دَاخِلَ كَهفٍ سِرِّيٍّ نَعيشُ فيه بِمَأمنٍ عَن صَحوِ ظُروفِكَ الشَّائِكَاتِ . . ؟ . . أَمْ أطعَنُكَ دُونَ مُبَرِّرٍ بِقَلمِي ؟ . . . أُسلِّمُ لَهُ إمضَائِي ، وَأَنسَحِبُ . .

كُلَّمَا حَاوَلتُ التَعامُلَ مَع وُجودِكَ بِمنطِقِيَّةٍ وَجدتُنِي خَارِجَ النِّظَامِ إثرَ خَطأٍ تَقنِيٍّ ! . . لا يُمكِنُ تَخمِينُ أيِّ شَيءٍ يُنسَبُ إليكَ . . ولا يُمكِنُ لِلفَرحِ أَن يَتوافَقَ مَعَ إمكانِيَاتِ وُعُودِكَ . .

سَيَجيءُ اليَومُ الذي سَأبكي فِيهِ بِقَدرِ مَا أُريدُ، لأَسجُنَكَ فِي قَوقَعَةٍ مِن أَحزانِي، سَأُدْخِلُكَ ظَلاماً أَكبَرِ مِمَا صَنَعَتْ يَداكَ، و مِمَا أَلقيتَ عَلَيَّ مِن كَثِيفِ ضَبَابِكَ ذَاتَ حُلْمٍ . . أَحتَاجُ إلى أَن أقتَصَّ لِشُعورِ الخُدعَةِ الذي تَزرَعُهُ بِدَاخِلِي وَتُسَايِرُهُ بِجُنُونٍ لِيَكبُرَ مَعَ الأيامِ .

أُحَاوِلُ النَظَرَ فِي الوُجوهِ . . إنَّ البَشَرَ أشبَهُ بِـ"بورصَةٍ" مَفتوحَةٍ على أَعلى المَصلَحةِ رَقمْ . . الجَميع يَستغِلُّونَ بَعضَهُم . . يأكلونَ بَعضَهُم إن احتَاجَ الأمرُ . . المُهِمُ، لا بَلْ الأَهَمُّ ألا يَخسَروا صَفقاتِهِمْ !

يُحزِنُنِي أَكثَرَ أَنَّني رُغمَ شُحِّ وميضِي . . بَكَيتُ لأَجلِهِ وَ لَيسَ لأجلِيْ . . وَصَلَّيتُ كَي لا يُثيرَ الزَوبَعَةَ التي أَثَارَهَا، لَكِنَّ خَوفِيَ انتَهَكَ الوَاقِعَ وَخَرَّ جَالِساً عَلى رُقعَةِ حَاضِرِهِ المُفعَمِ بِالتِقاشِ . . !

أَنا لا أَحصُدُ غَيرَ اتّهامِكَ . . وَكَأَنَّ احتِراقَ أَعصابي خَيارٌ يُؤَهِّلُني لِلسُّكُونِ . . وَانجِمادَ قَلبي احتِمالٌ مُقرونٌ بالوَفاءِ . . وَموتَ أحلامي انقِباضٌ طَفيفٌ فِي شِرايِنِ وَمضِكَ . . ! تَشابَهَ عَليَّ الوَجعُ كَثيراً فَمَا عُدتُ أَعرِفُ أَيُّهُ أَنسبُهُ إليكَ . . غُربَتِي أمْ غَرابَتِي . . ؟

كِلانا يَتَوكَأُ عَلى ظِلّه . . أَنتَ بِقَلبٍ مُتعَبٍ وَأَنا بِشَعرٍ أبيَضْ ! لَكِنَّ الاختِلافَ الحَقيقِيَّ بَينَنا يَكمُنُ فِي أَنني بِحَاجةٍ إلى أن أَستَندَ عَليكَ فِي الخُطوةِ، بَينَما أَنتَ لا تَحتَاجُنِي لِتَقومَ جُدرانَ بَيتِكَ وَتُؤمِنُ أَحْلامَكْ .

إِنَّني أَضعَفُ مِن أَن أُنادِيَ لِمَدينَةٍ فَاضِلَةٍ، فَكُلِّي خَسَاراتٌ، وَمَخبوءُ قَلبي مُعَادَلاتٌ مَادِّيَّةٌ وَأَزمَةُ ثِقَةٍ . . . وَحُدُودْ !

تَجنُّبُكَ الصّدقَ أمامَ مِرآتي بَاتَ عَادَةً، أنتَ فِيهَا لا تُشبهُ نَفسَكَ ذَاتَ الوَعدِ وَالعَهدِ، أنتَ أقربُ مَا تَكُونُ لِمُقَاتِلٍ هَارِبٍ مِن سَاحَةِ المَعرَكَةِ.. تَحْمِلُ فِي يَديكَ النَارَ وَتُرِيدُ أن تُطفِئَها.. فِي دَاخِلِكَ غَضَبٌ أسودُ لا يَخرجُ مَعَ ثَانِي أُكسيدِ تَنفُّسِكَ.. لَكَ أمنيَةٌ تُرِيدُ أن تَصبو إليهَا فِي صَحوِكَ، لَكِنَّهَا أبعدُ مِن أن تَطالَهَا.. أيُّهَا المُنسَحِبُ مِن كَلامِي إلى صَمتِكَ، وَمِن خَيالِي إلى حَقِيقَتِكَ.. ألا يَكفِيكَ هَرَبًا؟!

أحتَاجُ إلى أن تُواجِهَنِي.. فَأكونُ النَارَ التِي لَن تُخْمَدَ فِي يَديكَ.. وَأكونُ الرَمَادَ الكَثِيفَ الذي سيَحتَلُّ مِرتَبَتِكَ.. أُرِيدُ أن أكونَ آخِرَ حُلْمٍ تَرسُمُهُ فِي يَقظَتِكَ، وَتُصلِّي مِن أجلِ أن تَرَاهُ فِي مَنَامِكَ..!

وَمسقَطُ وَحدَتِي سِرِّيٌّ لِلغَايَةِ، لا أُفصِحُ عَنهُ حَتى بَعدَ تَهدِيدٍ وَمَشَقَّةٍ! إلا أنَّنِي كَتَبتُهُ بِوُضُوحٍ وَتَمتَمتُ بِهِ فِي أُغنِيَتِي.. لَكِنَّهُ لَيسَ يُغرِيكَ!

أتَعلَمُ؟... خَاوِيَةٌ عُرُوشُ قَلبِكَ دُونَ مَرَابَةِ فَوضَايَ!

عَليَّ أن لا أكُونَ آلَةً للسُقُوطِ تحتَ بَندِ التَّجرِبَةِ! فأنا لستُ مُجرَدَ خيَارٍ، لطَالَما كُنتَ اختياراً مُجاباً ضِمنَ أسئِلَةِ اختبارِ القَدَرِ لِي!... حِينَ وَضعتُ الدائِرَةَ على اسمِكَ.. رسمتُها بمحبَّةٍ وحِرصٍ لأُحيطَكَ بتَميمَةِ الوُجودِ ضِمنَ حَيزِ عَينيَّ وتحتَ سَقفِ سَمائِيْ، لا أُنكِرُ أنَ الخَوفَ دَعانِي لأَن أُمسِكَ جيداً بالقَلَمِ رُغمَ تعرُّجَاتِ مَا بدا على صَفحاتِكَ المَاضيَةِ!.. إلا أنني أتممتُ الدورَانَ لأنصّبَ نَفسِي كُوَيكِباً وَرديَّاً.. وَلَوْ كَانَ الضوءُ الذي تسرَّبَ من رُوحِي نحوكَ ضَئيلاً! أمَا أنتَ.. فلا أعلمُ إن سَقطتُ سُؤالاً إضافياً فِي امتحَانِ العُمرِ لَكَ.. أو أنني كُنتُ المَسألَةَ الأصعَبَ فِي ظَرفٍ خَانَكَ فيهِ الوَقتُ والذاكِرَةُ ومُكَافِآتِ السَماءِ بِرَدٍّ نموذجِيٍّ..؟!

لَقد تَعَثَّرتَ كَثيراً وَلَستُ التي وَضعَتُ على أَرصفتِكَ الحَجرَ!

لَطَالَمَا أَحببتُ أُسطورةَ ابنَةِ الضُوءِ . . إلى دَرجَةِ تَمنِي أَن أنفجرَ مِن قَلبِ عَتمَتِي لأولِدَ طاقَةً خَضراءَ . . لَكِنَني لَستُ إلا حَفيدةً وَجَعٍ هَاربَةٍ مِن رِوايَةِ بُحيرَةِ البَجَعِ إلى رَصيفِ انتظَارٍ لا سِحرَ فيهِ . . ولا أُمنيَة . . !

تَمَرَّستُ الانتظَارَ . . وَامتَهنتُهُ غَايَةً لا تُدرَكُ بالوُصُولِ . . ! مِن رَتَابَةِ العُمرِ أتمَنَى أَحيانًا لَو يَتَلَوَّنُ جِنٌّ وَيَختَطِفُنِي، كَي أَتعلّمَ الشَرَ المُطلَقَ عَلى يَديهِ وَأُمارِسَهُ عَلى أشباهِ الإنسِ ! . . أَو أَن تَبتَلِعَنِي السَماءُ بِثقبٍ وَردِيٍّ يؤدّي بِي إلى مَلائِكَةٍ تُشبِهُ أَحلامِي اليَتيماتِ . . إلى بُحيرَةٍ من أَزهَارِ الاحتِمَالاتِ والكَثيرِ مِن النُجومِ . . . . صِدقًا، مَا عَادَ يُهِمُّنِي الكَيفُ . . فَقَد سَلَّطتُ حَاجَتِي نَحوَ أُمنيَةٍ برَحمَةٍ عَادِلَةٍ، وَرَهنتُ قَرارِي إشارَةً لِعَنقَاءَ تَشكَّلت مِن خُرافَتِي عَن لَونٍ جَدِيد . . . . . أُريدُ الخُروجَ مِن دائِرَةِ المَدينَةِ القَاحِلَةِ والسِّربِ المُهاجِرِ !

حَالَمَا تتَّضِحُ لِي بِغَيرِ طَيفٍ وَظُنونٍ، رُبَمَا سَأَحتَاجُ إِلى الكَثيرِ مِن الوَقتِ لأُقَرِّرَ الأَنسَبَ . . وَقَد أَجعلُكَ تَقِفُ وَقفَةَ انتظَارٍ حَتى أَصِلَ وَ نَفسِي إِلى إصدَارِ قَرارٍ بِالسلامِ مَشرُوطٍ بِراءَتِي مِن الحُزنِ مَعَكَ!

. . فِي دَاخِلِي سِجنٌ لا أَحَدَ يُدرِكُهُ غَيرَ عَصَافِيري التي مَاتَتْ دَاخِلَ قَفَصِي الصَّدرِيّ!

لَيتَني أَهْرُبُ وَأَهَرِّبُ عَني هَذا الوَجَعَ، وَهَذا البَجَعَ . . . !

. . وَعَليكَ أَن لا تَكُونَ طِفلاً مُدلّلاً يَتَظاهَرُ بِقُدرَتِهِ عَلى رَسمِ الشَّمسِ قُرصاً فائِضاً عَن الضُوءِ وَأشِعَّةً تَفُوقُ البَنفسَجِيّةَ عَلى دَفاتِري، فَمَا لَديكَ مُجرَّدُ قَلمٍ لا حِبرَ فيهِ . . !

الأَرضُ كُرويَّةٌ في فيزياءِ الأحبَّةِ . . ؟ ! لا أراها إلا مُسطَّحةً إلى مَا لا نهايَةَ معَك ! . . لا شَيءَ غَيرَ الخَيباتِ يصطَفُّ على جَانِبَي الدَّربِ بعتَمَةٍ وارِفَةٍ، لا تُؤدّي أشجارُ الزَّيتونِ فيهَا التحيَّةَ الطَّيبةَ، إنهَا تنتقِصُ مِن عُمري كُلمَا تَبَنَّيتَني صَفحَةً امتلأت بِكَلِمَاتٍ لم تقرأْهَا !

تَتضاءَلُ رَغبَتي بالفَرحِ كُلَّمَا امتدَّ عُمري يوماً آخَر . . متى سَينتهي الإحساسُ بِكُلِّ هَذا الكَمِ مِن العَجزِ اللامُتناهي ؟ إنَّ وُجُودكَ يَجعلُني أخسَرُ المَزيدَ مِن إمكانيَاتِ الصُّمودِ في أرضِ الهُدنَةِ، وَكأنَّكَ تَعيشُ على بَقاياي، تَنتشي مِن دُمُوعي وَتَتغذَّى على دَمي في الوَقتِ الذي أردتُكَ سنداً لرؤايَ المَائِلَةِ ! . . اتَّضحَ أنكَ فَاقِدٌ للبَصيرَةِ لا البَصَرْ ! وأنَّ خُطواتِكَ مَحْفُوفَةٌ بالخَطَر .

. . أُريدُ يَقيناً خَالِصاً يُرشِدُني إلى جِهَاتٍ أقلَّ عَتَمَةً مِن أسوَدِكَ . . لَكِنْ هَلْ أستطيعُ مُغَادَرَتَكَ . . ؟ بتُّ مُدمنَةً على تَجَرُّعِ تَعَاسَتي مَعَكَ، إنهَا جُزءٌ مِن أُكسجينِ رِئَتَيَّ، وَأبيضُ مَا يُضفِي على كُرَيَاتِ دمِي مِن شُحُوبْ . . وَلستَ بِمَنَاعَةْ !

فِي غَفوَتِي حَلمتُ أَنَّنِي أَطرُقُ عَليكَ البَابَ . . فَتَفتَحُ لِيْ، أَسأَلُكَ: خُدعَةٌ أَمْ حَلوَى ؟ فتقُولُ لِي وفِي عَينيكَ بَراءَةُ طِفلٍ سَعيد: أَعطِنِي "الحَلوَى" . ضَحِكتُ عَلى جُزءٍ مِن حِكايَةٍ جَمَعهُ بَعضُ لا وَعيي . . عَليكَ أَن تعلَمَ أَنَّ حَلوَايَ لَيستْ بالجَّانِ، عَليكَ اجتِيَازُ نَارِي قَبلَ أَن تَدخُلَ نَعيمَ جَنَّتِي . . ! أَوتَعلَم ؟ لَو تَبادَلنَا الأَدوارَ وَطَرقتَ بَابِي، فَلَنْ أَختَارَ مِنكَ الحَلوَى، عَلى كُلِّ حَالٍ فَأَنتَ لَنْ تَحمِلَ إِلَيَّ سِوى خُدَعٍ صَغِيراتٍ . . . !

أُحَاوِلُ أَن أَسترجِعَ صُورَتِي زَهرَةً مُستَلَحةً، أَستَمِدُ مِنهَا صُمُودِيْ، فَإِنَّ لِحَدائِقِيَ الحَقَّ بِأَن تُسقِطَكَ كَوَرَقَةِ خَرِيفٍ جَافَّةٍ . . أَو تَستَعِيدَكَ كَزَهرَةِ لَوزٍ وَاعِدةٍ . . ! لَكَ أَن تَختَارَ الشَّكلَ الذي تُقَيِّدهُ بِأَدَائِكَ . . لا الذي تأمَلهُ بِمَنَامِكَ، حِينَهَا فَقَط . . سَتَلتَئِمُ الذَاكِرَةُ مِن حَرَائِقِهَا، وَ يَتَكَلَّلُ جُرحِي بِالغَارِ . .

لَطَالَمَا كَانَت المُدَوَنَاتُ بالنسبَةِ إليَّ إغلاقاً لنهايَاتِ وَجَعٍ، أو مفتتَحاً لِقَصائدِه! إلا الكِتَاب الذي سَيَخُطُّ سِيرتِي مَعكَ! إني أجدُنِي فِيه أَمُوتُ وَأَحيَا.. أَحيا وَأَمُوت! ما بينَ الحبرِ الأسوَدِ وَالصَفَحَاتِ البَيضَاءَ أَستدعِي وَردِيَّ سِيرَتَكَ حينَ تَكونُ أميراً، وَأدعوكَ للخُروجِ عَن نصّي حينَ تكونَ قَاتِلاً! وَأستجديكَ أَن تَردَّ البَابَ عَلى غِيابِكَ وتعودَ إلى غُرفتِكَ كُلَمَا لمستَ فَوضَايَ.. تَشكو المدوَّنَةُ توتُّرِي إليَّ! تَرغَبُ أَن أَسيرَ مَعَهَا بخَطٍ وَاضِحٍ.. تُوقِنُ بأَنَّها مِرآتِي وَأَنَا أَودَعتُها نَفسِيْ، وَكَمْ مِن الصَعبِ أَن نَمضِي مَعَاً بنَبضٍ مُنسَابٍ طَالَمَا أَن الأَرضَ لا تَكُفُّ عَن الدَّورانِ عَكسَ خَطواتِي وَالسَماءَ لا تَكُفُّ عَن التَّذبذُبِ فِي مَواسِمِ قَصفِي.. وَالقَلبُ لا يَكُفُّ عَن الانقباضِ.. كُلَمَا ذَرفتُ دَمعَةً وَشُدَّ فِيَّ عَصَبْ!

أُريدُ أَن أَتجَذَّرَ فِي عَتمتِكَ، لَعَلّي بِأَمرٍ مُعجِزَةٍ كَونِيَّةٍ، وَتميمَةٍ قَلبيَّةٍ.. أُضِيئُكَ!

خَرجتَ مِن عَتمتِكَ بِقنديلٍ هَزيلٍ، يَومَا ارتضيتُ بِكَ مُغتَرِباً، وعِندَمَا كُنتَ مُحالاً لِموتٍ أَقربَ مِن نُزُوحِكَ، رَضيتُ بِكَ.. مُواطِناً!!

سَأَلتَني الصُّمُودَ عَلى رَصيفِ انتظارِكَ، وَأنتَ تَعلَمُ أَنَّكَ تَجاوزتَ الرَّبيعَ بِكُلِّ مَا فيهِ لِي مِن رَجَاءٍ، فَقَد انطفَأَ الزَّهرُ عَن أَغصَانِ الشَّجَرِ.. وَسَقطَت أَوراقِي، وَطَمرَت ذِكرَانَا وَالأَثَرَ.. حَتى قَلبِي انحازَ لأَن يَكُونَ حَجَراً!

لَو تَعقِدْ عَلى قَلبِي وَردَةً حَمراءَ، فَروحِي مُثقلةٌ بِسَوسَنِهَا الأَسوَدِ!

بِقَدمَينِ حَافِيتَينِ.. أَقِفُ عَلى شَوكِ المَرحَلةِ، لا ثَبَاتَ وَعدَكَ يُهوّنُ عَليَّ المَسألَةَ.. وَلا جَمرُ التَّمنيَاتِ يُعينُنِي عَلى تَخَطّيكَ تَجرِبَةً..!

مُنذُ أَن دَخلتُ مرُقعَتكَ وَأَنا بانتظَارِ الخُطوَةِ التَاليةِ لأَحجَارِكَ، لا دَورَ يُنصِفُني وَلَستُ أُجيدُ تَبصُّرَكَ مَربِعاً يَليقُ بِصُمُودِي عَلى أَغصَانِ خَريفِكَ، أَيقنتُ بِإيمَانٍ مُطلَقٍ أَنكَ دُونَ جُنودِكَ لي مَلِكٌ! وَبِجُملَةِ مَا يُحاصِرُكَ مِن خُيولِي.. وَجَدتُني الظَّرفَ الطَارِئَ فِي المَسألَةِ، لِهَذا طَالبتُ بِأَربعِ خُطُواتٍ كَي أَحسِمَ المَعرَكَةَ، غَلَبتَني، نَعمْ.. لَكِنَني دَرستُ تَقفِيكَ أَثَراً!

لَقَد وَصَلتَنِي هَدَايَا عِيدِي مُتَأخِرَةً مُغلَّفَةً بِشَرائِطَ مُحتَرِقَةٍ، صُندوقِي فَارِغٌ إلا مِن المِلحِ.. المِلحِ القَادِمُ عَلى إنعَاشِ عَينَيَّ بَعدَ كُلِّ بُكَاءٍ.. لِذَرفِ دُمُوعٍ أَكثَرَ!!

... بَعدَ أَن قَيَّدتَ حُلمِي بِأَيامٍ ضَبَابِيَّةٍ، وَحَاصَرتَ آمَالِي الصَّغِيرَاتِ فِي مُعتَقَلٍ، مَا عَادَ لِي مرُقعَةٌ كَي أَرسُمَ فِيهَا نَفسِي أَميرَةً بِتَاجٍ وَمَردٍ أَسَاوِرُهَا لُؤلُؤٌ، شَالُهَا حَرِيرٌ.. بِتُّ أَتوارَى خَلفَ طَرحَةٍ ضَبَابِيَّةٍ، أَتجَمَّلُ بِالوُعُودِ.. ذَخِيرَةً!

أَبدُو كمَنْ تَحمِلُ قَلبَهَا عَلى بُوصَلةٍ لا تُؤدّي إلى أَرضٍ خَيَالِيَةٍ، أو كَجَمْعَةٍ هَارِبَةٍ مِن مَدارِ رَقصَتِها لِجِهَةٍ لَيسَ فيهَا سَمَاءٌ ! !

لَيسَ بِوسعِي غَيرُ بلوغِ الأَمسِ بِذاكِرَةٍ مَكسورَةٍ . . وَالجُلُوسِ عَلى حَافَةِ هَذا اليَومِ بِسَاعَاتٍ مَسمومَةٍ . . وَالتنبُّؤُ بِغَدٍ لا يُنَالُ بِغَفوةٍ ولا بِوُعُودٍ تَبدُو لِي أنَّهَا بِحَظٍّ شَيطَانِيٍّ . . مَسْكُونَةٌ . . . !

دَعْنَا نَتَقَاسَمُ هَذا السَّطرَ مَعاً، رُبَمَا لَوْ قَسَمْنَاهُ عَلى مَا فِينَا وَمَا لدَينَا . . لَتَدَاعَى لِلمَرَايَا أَن تُنطِقَ وَصفاً لَنَا . . . وَتتكَسَّرِ مِلءَ يَدينَا، يَومَ لَنْ تَنفَعُنَا مَلامِحُ وَلا نِيَّةْ . .

لا تَنسِبْ قَائِمَةَ أَخطَائِكَ إلى القَدَرِ . . القَدرُ لَمْ يَمْنَحْكَ غَيرَ صَفحَةٍ بَيضَاءَ . . وَأَنتَ الذي كَتَبْتَ عَنَاوِينَ الوَجَعِ فِينَا، وَأَسهبتَ، لَمْ تَكْتَفِي بِالمُختَصَرِ . . !

كأنّكَ كتبتَ على صفحةِ قلبي يومَ القيدِ . . تميمةً تمنحُ وجعي معكَ . . الخلودْ !

كُنْ يقيني بأنني لمْ أُخلقْ للبكاءِ، واسعَ لتلوينِ بُنّي عينيَ الداكنِ . . بالضوءِ !

دعوتُ بأنْ تكونَ فهرساً مفهوماً، ألتمسُ من خطوهِ دفقاً واضحاً يُعينُني على المُثولِ في نهاراتكَ . . على غيرِ عتبٍ ! في حينِ أنّ عناوينكَ مُبهمةٌ وإشارةُ مُرورِ أُمنياتكَ . . حمراء ! فأكتبُ بالحبرِ أو بالدمِ على جبينكَ اختصارَ النزفِ، علّني اقرأُها في تجاعيدِ رُوحكَ بلغةٍ غيرِ لغةِ الندمِ .

سبقَ وأنْ أخبرتُكَ بأنّ السقفَ ضيّقٌ، وأنّ الجدرانَ مائلةٌ، وأنّه ما عادَ بوسعي في ظلِّ ما هوَ آيلٌ للموتِ . . الحياة !

قُلتُ لِنَفسِي سَنحمِلُ عَنمَتينَا بِيَدَينِ مُتَشَابِكَتينِ وَنَمْضِي . . رُبما تَبزِغُ شَمسٌ قُربَ نَوافِذِنَا وَتُشعُّ قُربَ رَأسَينَا ! قُلتُ لِقلبِي . . خَافِقُ الدَّفقِ فِيهِ كَفيلٌ بِأَن يَسكُنَ ذَاتَ قَمَرٍ مُكتَمِلٍ . . فَأَسكُنُ إِليهِ . . ذَاتَ نَجْمَة !

. . هَلْ عَلَيَّ أَن أُحَطِّمَ مَرَايَايَ كَي لا تُبَاغِتَنِي قَبلَ النَومِ فِكْرَةٌ . . وَعِندَ الصَحوِ أُمنِيَةٌ . . وَفِي نَهَارَاتِي أُحجِيَةٌ، وفِي سَهَرِي . . وِحدَةٌ ؟ !

تُرِيدُنِي أَن أُطلِقَ سَرَاحَ الخَوفِ عَن نَبْضِي وَأُسَلِّمَ لَكَ ثِقَلَ الجَنَاحِ، وَأَطِيرُ . . ؟

أُخَبِّئُ سِيرَتَكَ الذَاتِيَةَ التي رَصَدتَ فِيهَا انتِصَارَاتِكَ الوَهمِيَةَ فِي جَيبِي الصَغِيرَةِ، مَعَ أَنَّ أَرشِيفَكَ الأَخِيرَةَ لا يَتَّسِعُ لَهَا قَلبٌ وَلا تَحوِيهَا رُقعَةٌ !

وَأَنَا المُعَلَّقَةُ بينَ أَرضِكَ وَسَمائِيْ . . مَا عَادَ لِي جَناحَانِ كَيْ أَدورَ حَولَ ظِلّكَ، وَلَيسَ لِي عَينَانِ أُبصِرُ فِيهِمَا وَجهَكَ بِسَبَبِ بُكائِي . . مَع أَنَّكَ الجُزءُ التَّلِيدُ مِن اختِيَارَاتِي، إلا أَنَّكَ كُنتَ القَاتِلَ دَائِمَاً . . وَأَنَا، وَاحَسرَتِي ! كُنتُ أُمَيلُ مَع الأَحلامِ بِرقصَةٍ تَبَيَّنَ لِي لاحِقَاً أَنَّها خُطوَةُ المُتَعثِّرِ الذي لَفظَتهُ الدُرُوْبُ . . !

هَاتِ مِن لدُنكَ يَا قَمرُ بَعضَ الوُضُوحِ الذي يُؤدِي لِي التَحيَّةَ فِي لَيلِ العَتمَةِ . . أَو يُوفِينِي أَثَرَاً ! لَيسَ هُنَاكَ مَنْ أُخاطِبُهُ بِصِيغَةِ الضُوءِ . . مَا عَادَ لِي نَجْمٌ وَلا قَمَر، وَعَن أَحلامِي . . لا خَبَرْ !

عالِقَةٌ أَنَا فِي المُنتَصَفِ، كَنَورَسٍ ضَلَّ مِيناءَهُ فِي أَرضِ لُجوئِهِ فَضَربَتهُ الغُيُومُ بِالصَاعِقَةِ ! فَمَا عَادَ لَهُ جَنَاحَانِ يفرِدُهُمَا فِي سَمَاءِ اللوْنِ . . وَلا مَنَارَةٌ تَردُّ وَمْضَ نِداءِ قَلبِهِ عبرَ المَدَى !

عَاجِزةٌ عَن القَصيدَة! أهفو إلى مُدوّنَتِي كُلَّمَا اعتَرتني وَخزةٌ للبُكَاء، كَأنَ فِي يَساري قَيداً.. وَفِي رأسِي دُوَاراً، كِلاهُمَا يُراوِدُني عَن ارتِكَاب جُرمِ الحُلمِ بِوُجُودِكَ.. أجدُني مُتَرنّحَةً بينَ السُطُورِ، أحيانَاً أرتعِشُ مِن خَوفِي أن أبقَى قُربَ وَحْدَتِي فِي دَائِرَةِ حِصَارِ العُيُون.. وَحينَاً أُخرى ذَابِلَةٌ... بِسَبَبِ مَا لَدَيَّ مِن تَفَاصِيلِ ذِكرَاكَ التي تَقْبِضُ قَلبِيْ.. وَحينَاً مَيتَةٌ عَلى غُصنِ استِكَانَتِكَ الطَّوِيلِ.. وَشَاهِدَةُ قَبرِي بِتَارِيخِ انتِهَاءِ قُدرَتِي عَلى الصُّمُودِ حَتى عَودَتِكَ، أَرَاكَ تَحمِلُهَا مع أَكَالِيلِ الزَّعتَرِ البَرِّيِّ بينَ يَديكَ!

.....، تَذَكرتُ شَيئَاً، كُنتَ تَأتِينِي وَاعِداً بالسَعادَة، وَأنا عَلى وَعدِكَ حَييتُ مَا استَطعتُ.. حَتى أنني كُلَّمَا مَرت الأيامُ تبيّنَ لِي أنكَ تُقدّمُ لِي التَعاسَةَ عَلى طَبقٍ أنِيقٍ... مَع ذلِكَ كُنتُ المُستَسِيغَةَ لَهُ، وَبَقِيتُ إلى آخرِ نُقطةٍ حَمراءَ مِن دَمِي الأَزرَقِ، أُدَافِعُ عَنكَ وَأَصُفُّ جُيُوشِي جِداراً يَحمِي غُربَتَكَ مِن أيّ وُضوحٍ لا يَعنِينِي..! استَسلَمَ جُنُودِي وَسَلمَتنِي رايَتَكَ! مَسمعِي ضَلَّ جِهَةَ صُراخِكَ.. فَحَادَ موضِعَ الإدراكِ فِيَّ.. ولَمْ يُصِبْ!

. . لا أزال مُختزلة داخل غلاف قصتك كأميرة يُكبلها الانتظار . . أمتهن الحياة داخل سجن أحلامي في مُمتلكاتك الوهمية . . وأتمنى لو كنت قطة لأُمارس الشغب وأهرب من خلال إطارك !

أمارس السهو ملجأً . . . أبني فيه لخيالاتي احتمالات، وقبل بلوغ فوضى الواقع ذُراها . . أجدني أهرب من رُواق الحدث إلى ممرات العتمة، وأُساق إلى الكآبة كطقس مفروض على لوني الأسود، و سيرتي بجعة، أما خارطتي فهي بلا جهات ولا مفاتيح ، جُل ما فيها الأقفال، مُبهمٌ أنت، كأنك كنزٌ مفقودٌ في المجال، كما أنا مُغيبةٌ عن فتوى الوُصول !

لا أحد يدري أنك تحتل الضفة الشرقية من قلبي بأمر غارة وتُدبتين !

أُكاشِفُكَ بِقراءَةِ سُورةِ قلبكَ، لا أجدُ فيكَ حدائقَ مزهرةً وَرداً . . بَلْ خرائبَ مُفتعلةً تُقيمُ فوضاها في حياتكَ . . فأتعمّدُ الدموعَ علّ الترتيلةَ الأخيرةَ ترفعُني إلى سماءٍ أستقرُّ فيها، يمنحُني الملاكُ معطفاً أتدثّرُ فيهِ من بردكَ، وأقرؤكَ بحروفٍ مصلوبةٍ على كفّي . . تستقرُّ ناحيةَ الوجودِ فيَّ لعنةً!

ولا زلتُ أتنفّسُ على حافّةِ انهيارِ الحكايةِ، وأخطو إلى الأمامِ خطوةً وإلى الخلفِ وطيفكَ خطوتين . . .

أنتَ متهمٌ خلفَ قضبانِ الخيبةِ، لا تملكُ لهديلكَ لحناً . . لا قوةَ فيكَ ولا حُلْم، أطبقتَ عليكَ جناحيكَ . . تجرّعتَ البكاءَ، طالبتَ بالمغفرةِ، لوّحتَ للغبارِ . . قطعتَ فيكَ شرايينَ من حياةٍ وربطتَ على قلبكَ قيداً، ضحكتَ كالمسوس! وحينَ تحرّرتَ بحكمِ رشوةٍ! قلتَ لقلبي: "أنا . . . . مظلومٌ!".

لا نزلتَ تصبُو لمنزلةٍ تحملُكَ على جُنحِ حمامٍ . . إلى مدينةِ حُبٍّ وَ سلامْ !

. . أما كُنتَ تعلمُ أنَّ يديَّ صغيرتانِ جداً . . وكاهلُكَ . . ضعيفْ !

لستُ قابعةً في الزاويةِ الكونيةِ المُظلمةِ . . لكنَّ الضوءَ ما عادَ يُبادرُ في الصُّعودِ حيثُ رأسي . . .

ما عُدتُ أعلمُ هلْ أبحثُ عني بشكلٍ مُختلفٍ لأخطوَ معهُ نحوَ هاويةٍ ما يبدو ؟ . . أمْ أرتأي لتغييري إلى أن أكونَ حديديةً أكثرَ مما ينبغي كي أُواكبَ همَهُ ؟

التَقطتُ صُوَراً مِن الوَردِ بِقَدْرِ مَا جَمَّلتُ رُوحِي ، لَـمْ أَقطِفْ أَي وَردَةٍ مِن خَوفِي عَلى ظُلمِي لأَدنى مَعَانِي الأَمَلِ ، عَدا بَراءَةِ يَديَّ مِن جُرمِ سَطوٍ . . ! فَهِي عَلى الغُصنِ دَافِئَةٌ وَفِي أَيدِينَا بَارِدَةٌ !

نَسيتَ وُرُودِي، قَيَّدتَ هَديلي . . صَادرتَ أَحلامِي . .
فَكَيفَ سَتَكتُبُ بُنُودِي عَلى سَطرِ أَمْرِكَ ؟

لا نُرِيدُ الخُروجَ عَنِ النَصِ، ولا مُغادَرَةَ يَقِينَا تَارِكِينَ خَلفَنَا عَلامَاتِ استِفهَامٍ . . أَنتَ تَسأَلُنِي هَندَسَةَ الكَلماتِ بِحِصَارٍ، وَأَنا أَرفضُ أَن أَختَصِرَكَ !

سَقفُ كِفَايَتِي مِنْكَ، مُغلَقٌ عَلى نَجْمَةٍ . . وَقَمَرْ !

نَوافِذُكَ . . تُمَرِّرُ الغُيُومَ، وَتَستعجِلُ الشِّتَاءَ . . وَطَناً؛ مُتَأَهِباً . . لِلدُمُوعْ !

مِن تَداعِيَاتِ صَيفٍ،
أَخَافُ أَن لا تُوَهّلَني احتِفَالاتُهُ للرَّقصِ،
. . فِي رُقعَةِ ظِلّكْ.

يَا شُبهَةَ الفَرحِ سِيرِي وَإِيانَا فِي دَربِ اليَقينِ، مِثلَ نَهرٍ يُرِيدُ أَن يَنجو. . إِنَّ الظَرفَ حَادَ بِي إِلى جِهَةِ قَلبٍ وَاهِنْ، تَماديكَ فِيهِ جَعلَنِي أُرجُوحَةً، لا يَستَقِرُّ فِي قَرارِها. . مَصِيرْ!

أَنتَ فِيَّ. . كَالبَسمَلَةِ،
أَبدأُ بِكَ صَحوَ عَينِي. . وَأَغفو عَلى وَقعِ أَمَانِكَ!
أَنتَ مَعِي، بُوصَلَةٌ. . كُلَّمَا تُهتُ عَن مَدَارِي،
عايَنتُ مَدارَكَ. . فَقَلبُكَ مَلْجَئِي.

دَعنَا نَتَقَاسَمُ الفَرحَ، أَنتَ وَأَنا. . نِصفَينِ. .
امنَحنِي فَرحَتِي أُغنِيةً وَردِيَّةً، وَخُذ نَصِيبَكَ مِنَ الفَرحِ ضِحكَةً زَرقَاءْ!

أنا أعرفُ السِّرَّ، وما تُخفِي . . لكِن فِيَّ رَدٌّ مُتَأَرجِحٌ، بينَ قَلبِكَ . . وبَينِيْ !

غَارِقَةٌ فِي غُربَةٍ،
انتشَلتَنِي مِن قَتَامَةِ . . المَشهَدِ،
إلى فَصلٍ وَهَجٍ . . مُؤَجَّلْ !
عَجِّلْ وُصُولَكَ،
قَبلَ ضَياعِيْ . .
فإنَّ فِي الكَونِ،
ثُقْبًا أَسْوَدْ !

مَا قيمَةُ الخَطوِ مَا دامَت مَسَاحَاتُ الوُصولِ مُوصَدَةً بالأَسوارِ وَوَرَاءَ كُلِّ حَاجِزٍ . . عِملاقْ !

تَكبُرُ حَاجَتي لِقِصَّةٍ جَديدَةٍ، كُلَّمَا اقتَربتِ العَاصِفَةُ . .
ولأنني أَعيشُ بِالخَيالِ، أجِدُني أَسعَى إليهِ بِكُلِّ مَا أُوتِيتُ مِن حُلمٍ
لأتجَنَّبَ كَوَابِيسَ صَحوِي . . بِقَدرِ ايمَانِي بِأَنَ الحِكَايَاتِ ؛ مَجَالْ !

غَافَلَنِي الإحسَاس بِخفَّتِي، فانكَسَرتُ عَلى هَامشِ ثِقَلٍ . .
فَلا كُنتُ غَيمَةَ ،لِيَكُونَ أُفقِيَ الفَضَاءْ . .
ولا صِرتُ أَرضَاً، لأَهمِي عَلى نَفسِيَ . . مَطَرْ !

القِرَاءَةُ الصَامِتَةُ لِملامِحِ الوُجُوهِ تَجعلُنِي أَتَشَنَّجُ عَلى حَدِّ الذِكرَى . . أَجِدُ أن مَكِيدَةَ ضُوءٍ تُعَدُ لِي فِي الظِّلِّ نِهايَةً تَرقُبهَا كَمَا دَمِي . . فِي الخَفَاءِ الطُيُورْ ! ، غَيمَةٌ عَلى كَتِفِي . . وَمَطَرٌ فِي عُيُونِي، كِلاهُمَا يَدعُونِي لأَن أترُكَ حَيزِي هَذا وَأَنتقِمَ مِن الصَمتِ . .
بِحِيَاكَةِ الكَلِمَاتِ قَصِيدَةً !

لَو أنَّ المَطرَ يَترصَّدُ دَمِي . . لِيَغسِلَ عَنهُ أسودَ مَا رَاكَمَتهُ، الفُصُولْ !

كَمَا يُتقِّي التُرابَ مِن أثرِ . . جَبهَةٍ نَامَت عَليهَا الحُرُوبُ !

لو أنني . .

أرضٌ وَخَافِقِيَ غُصُونْ؛

لكُنتُ نَقَضتُ أوردَتِي . . عَلى حدِّ الأفُولْ !

مَا خَبأتُ فِي جَيبِي، أيَّ بذُورٍ . .

كُنتُ نَثَرتُهَا، عَلى مدِّ الفَرَاشَاتِ . .

خُيوطَ . . ضُوءٍ فِي الدُّرُوبْ !

حَالةٌ مُستعصِيَةٌ عَلى الوَصفِ . . شُعُورٌ خَارِجٌ عَن المَألُوفِ . .

لَيسَ بِحُزنٍ قَاتِمٍ، وَلا بفَرحٍ . . خَفِيفْ !

جُلُّ مَا تَعيهِ حَوَاسِي نَبضٌ، . . . بَارِدٌ !

أُلملِمُ أَلفَ خَيبةٍ . . وَأَصعَدُ عَلى رَمَادِ شُمُوعِي . .

أرصِدُ شَمْساً تؤيِّدُ صَحوِي،

مَن نَوافِذِ سِجنِي . . وَمَارِداً !

بإيماءةٍ للسَّماءِ أَرسُمُ عَلى الهَواءِ دَوائِرَ مَرْحَلَةٍ وَمُثَلثَ قَنْصٍ جَارِحٍ!

كَأَنَّ الحِبرَ الذي بِلَونِ دَمِي جَفَّ.. صَارَ مِن خَيبَتِي عَلى هَيْئَةِ.. دُمُوعْ!

لا لَونَ لأحلامِي.. لا ثِقَل، لا جَدوَى للتَّمنِّيْ.. حَسبِي تَميمَةٌ تُرتِقُ خَطِيئَةَ البَوْح؟

لا أَستَعِيدُنِي وَطَناً ولا مَنفَى.. جُلُّ مَا أنا فِيهِ تَعتِيمٌ عَلى خَرائِطِ الوُجُودِ، مُفعَمَةٌ حُدُودِي وَملامِحِي بأفكَارٍ أكبَرُ مِن لُجُوئِي.. وَمَصيرٍ أبعَدَ مِن حَربِي بِسلمٍ مُتأخِّرٍ بَعدَ هُدنَةٍ.. وَالسَلامُ عَليَّ يَومَ رَضيتُ أَن أَرفَعَ رَايَتِي دُونَ فَوزٍ.. بَل بِخَفضِ جَنَاحِي.. لِقُبُولْ!!

أُشيرُ إلى مُنحَنى تَفَاصيلِ ألحَانٍ، هِي كَتسرُّبِ الخَطِّ مِن رُوحي عَلى صَفحةِ المَاءِ . . وَانتبهُ! كَي لا يُلامِسَ حُلمِي مَلامحَهُ عَلى أَرضٍ مِن مَوتْ! أُصيرُ . . مُحَاوَلَةً كَي أَكتبَنِي أَمَلاً، وَلا حُرِّيَةً تُسعِفُنِي مِن صُعُودِ . . الأَمرْ!

عَن الكاتِب جواد الهشيم ، بِفاوانيا الريمْ .

أنا ريمٌ ولي عَزمٌ
كما الفولاذِ بل أكثَرْ
فإنّي أينما امضي
تراني سيرَتي الأعطرْ
فإن أحدٌ تحدّاني
سيلقى مصيرهُ الأغبَرْ
ولكن جُلُّ أخلاقِي
كوردٍ عاطِرٍ أزهَرْ .

– الأزهَرْ هو اللون الأبيض الصافِي المُشرقْ .

الفَصلُ الثاني

أربعةُ أزهار "فَاوانيا "بيضاء لَكِ.

سَأبقَى أقولُ: "أنا شَاكِرَةٌ لَكْ"

دَاخلي وُضُوحٌ لا يُفَسَّر، ولكنَّهُ عَصِيٌّ عَن الفَهم، لا أَبتغِي قِرَاءَةً مِنْكُم لِدَاخِلِي أَو مُحَاوَلةً جَادَّةً بِالتَرجَمَةِ أَو الإعراب، يَكفِينِي أن تَمرُّوا خِفَافاً مُنحنَى الوَجَعِ، تَتركُونَ عَلى قَلبِي أَربعَ زَهْرَاتِ فَاوانيَا بَيْضَاءْ . . !

أَوَدُّ لو أَقرأَ لَكُم مِن سِفرِ الحُزنِ قَصَائِدَ مَما وَقفَت عَليهِ الحَمَامَة، مُحَرَّمٌ عَليَّ أَن أَنطِقَ، لَكِنَّ الهَديلَ المُرابِطَ عَلى كَتِفِيَ . . يُبيحُ لِي . . الصَّدَى . . .

لَو وَجدتُ بَلاغاً يُعينُني عَلى البَوحِ أكثَرَ مِن الصَّمتِ . . لما اتخذتهُ لِي مُتكأً، إنَّ فِي كِتمانِي مَدينةً بَنَيتُهَا وسعَ حُجُراتِ القَلبِ . . زَيَّنتُ جُدرانَهَا بالوَردِ، وَأطلقتُ فِي مَسَاحَاتِهَا العَصافِيرَ . . لَمْ أُسيِّجِ بالزُّجَاجِ أَسوارِيْ . . تَركتُهَا للفُضُولِ إن مَرَّ عَابِرُ سَبيلٍ قَد يَنَالُ استراحَتَهُ . . هَا هُنَا !

أشبَهُ بغَيمَةٍ بَيضَاءَ . . مُنسَحِبةٍ عَن جِهَاتِ الضُّوءِ، لِعَتمٍ يُوَفِي غُربَتَهَا . . دُمُوعُهَا وَردِيَّةٌ، مِن فَرطِ غَرابَتِهَا قَالوا بأنَهَا تُمطِرُ زَهرَ لَوزٍ . . !

لطَّختَ سُمعَتَكَ بجُرمَينِ وَخِيانَةٍ ! تُريدُني أن أغفِرَ لَكَ، أن أَعفوَ عَن هَفَواتِكَ غَيرِ المُسوَّغَةِ . . ، لِهَذا تَأتِينِي بيَدينِ فَارِغتَينِ، بَدلَ الأَزهَارِ ؟ !

لا أحد يُناشِدُ لِحَربٍ قُربَ خَيالِه، لَكنَّكَ فَعلتَ؛ حِينَ رَفعتَ رَايَاتِ الدَّمِ الكُبرَى فِي حَدائِقِ أَزهَارِي! كُنتَ قَد أَحدثتَ خَلَلاً فِي تَوازُنِ الأَلوانِ فِي عَينيَّ إِثرَ بُكَاءٍ عَاجِلٍ، وَخَتمتَ عَلى قَلبِي بِقَبضةٍ مِن وَجعٍ فَهشَّمتَ مَرايَايَ. . مَا عُدتُ أَقوى عَلى رُؤيَتِي بِغيرِ صَفحَاتِ النَّشرِ. . وَمَا عَادَ لِوُعُودِكَ فِي حِبرِي وَفَاءْ. . .

مَلائِكَةُ الرَحمةِ فِيَّ تُرِيدُ إِنصَافَكَ، بِنِصفِ عَفوٍ. . حُكمُهَا عَليكَ أَن تُقِيمَ الحَدَّ، بِكَسرِ قَلبِكَ مِرارًا. . وَتَرمِيمِهِ بَعدَ كُلِّ كَسرٍ. . إِلى مَا لا نِهَايَة!

أَنَا لَمْ أَقفِل بَابِي فِي وَجهِكَ، كُنتَ قَد هَدمتَ جُدرانَ البيتِ وأَعمِدَتَه إِثرَ زِلزَالٍ فِي صَمِيمِكَ، كَسَرتَ بِقَبضَتِكَ زُجَاجَ النَوافِذِ لَحظَةَ غَضَبٍ. . فَأَينَ هُوَ البَابُ الذِي أَغلَقتَهُ؟ أَمْ هِيَ وَحَسبُ حُجَّةٌ تُقَوِّمُ بِهَا تَصدُّعَكَ وَغَايَةٌ كَي تُهَدِّئَ مِن اضطِرَابِ ضَمِيرِكَ؟

النُّقطَةُ التي وَضعتُها فِي آخرِ السَّطرِ لِحكَايَتِي مَعَك لا تَقبَلُ التَّفاوُضَ على جُملةٍ، فَمَا بالُكَ بِصَفحَةٍ؟! الفَواصِل كُلُّها رَفضتَكَ، لا يَليقُ بِكَ الآنَ غيرُ عَلامَةِ تعجُّبٍ تُطبَعُ بالنَارِ وَسمًا فِي جَبينِكَ!

لَستُ أَكتبُ مَا أَسلَفتُ لأنني نَاقِمَة عَليكَ، أَبَدًا، إنهَا مُجرَّدُ حَاجَةٍ إلى طَرحِكَ أَرضًا! لَستُ فِي سِبَاقٍ مَعَكَ للوُصُولِ إلى الرَابِحِ الأكبَرِ، إنَ رَصيدِي قَد أثَّ سَقفَهُ.. وَإنَّكَ مِن أفلَستَ فِي الحُبِّ!

لأنَّكَ كُنتَ تَصبو إلى طُمُوحٍ أكبَرَ مِن حَمْلِ رَأسِكَ.. بِتُّ المُدانَةَ بالثِقلِ حِينمَا قدَّمتُ لكَ تَاجَ المَملَكَةِ!

لأنَّكَ كُنتَ مُنشغِلاً بِهَدمِ أُسُسِ بَيتِكَ.. أَصبَحتُ المُلامَةَ بِرَسمِ نَوافِذِهِ عَلى دَفترِ رَسمِي!

لأنَّكَ أوضَحُ مِن أن تُقرأَ كَصَفحَةٍ سَوداءَ، اتُّهِمتُ بأنني أتممتُ رِوايَتَكَ بسَكبِ الحِبرِ فِيكَ؟

بِئْسَاً لكَ يَومَ تَوَّجتَنِي بِالخَوفِ وَحَملتَ لِي سِلالَ الوَرِدِ قضيَّةً ! يَومَ كَانَ مَأمَنُكَ الوَهمِيُّ دُونَ سَقفٍ مُباحٍ . . يَومَ أربَكتَ الحُرُوفَ، فَالدَّفقَ . . فَلونَ الدَّمِ بِي يَومَ كَانَ وُجُودُكَ فِي حَياتِي مُعتَقَلاً !

أَشتَاقُ إلى النَومِ تَحتَ سَقفِ النُجومِ الذِي صَنعتَهُ مِن بَراءَةِ طُفولَتِي وَمِن فَرطِ سَذاجَتِي نَصَبتُكَ عَليهِ قَمراً . . أَشتاقُ لِصَفحَةِ الحِكَايَةِ التي تَحرَّكتُ بِهَا ضِمنَ قُيُودِ السَّطرِ المُحَاصِرِ لِتَوقُعَاتِ العَجزِ بِيْ . . لِكُلِّ شَيءٍ؛ . . . عَداكَ !

مُبتدأُ الكَلامِ تُهمةٌ، وَآخِرُهُ مَرجَاءٌ . . وَكَأنَّ مَا فِي جُعبَتِي مُنغَلِقٌ عَلى ذَاتِي، أُشرِعُ لِلخَارِجِ مَزَفِيرِي المُثخَنَ بِالغَضَبِ . .

. . . نَحوَ مَخرَجٍ وَحِيدٍ، يَدفَعُنِي الخَوفُ مِن عَتمَتِي إلى الإسرَاعِ نَحوَ الضُوءِ، وَكَأنَّهُ مَطلَبِي الأخِيرُ !

فِي قَلبِي فَزَاعَةٌ تَهُشُّ الشُعورَ كُلَّمَا مَرَّ قُربَ أَغصانِي . .
عصفورٌ ! خَاوِيَةٌ عَلى خَرِبِفي الطَّويلِ . . مُجَوَّفَةٌ أَشجارِي لا تحمِلُ
الزَّهرَ وَلا الثَمرْ . . أَمَا عَن ظِلِّي ؛ فمُشتَبَهٌ بِهِ !

وَجهاً لوَجهٍ، أُجابِهُكَ بعينينِ نَاحِلتينِ تَفتقدانِ البَرِيقَ، لَكِن فيهِمَا
قُوَّةٌ بَعدَ وَعيدٍ ! وَأَراكَ بعينينِ مُفعمتَينِ بالكَذِبِ، مَفتوحَتَينِ عَلى الدَّهشَةِ
تَميلُ بَعدَ رِمشَةٍ . . إلى جِهةٍ ليسَ فِيهَا عِيد !

مُرتَابَةٌ مِن فَراغِي . . أَملأُني تُهمَةً . . فَضباً . . ، لا شَيءَ يُرضِي
غُرورَ المَسَاحَةِ الشَاسِعَةِ فِي قَلبِي . . أُريدُ حَقلاً مِن الوَردِ، يُسيِّجُ
أَسطُرِي وَيَفيضُ . .

لا مَجَالَ لِمُقَارَنَةٍ عَادِلَةٍ بَينَنَا . . أَرقَامُكَ صَعبَةٌ جِداً، لَكِنَّ
مُعَادلاتِي لَيسَ لَها حَلٌّ !

فَاقَ الوَصفَ الظِّلُّ المُتَكَاثِرُ بِشَكلٍ كَثِيفٍ تَحتَ عَينَيَّ . .
دُموعِي المَالِحَةُ ، صَوتِي المَبحوحُ وَالنَشيدُ الوَطنِيَّ لِسَلامِي ! وَالبُنِّيُّ المُنسَحِبُ لِهَشاشَةٍ . .

فَاقَ الاحتمالَ ؛ . . غَيرُ المَرئِيِّ مِن جُرُوحِي ، نَزِيفُ الحِبرِ المُتسرِّبِ مِن جُيُوبِي . . وَإفلاسُ الفَرحِ مِن رَصيدِي !

بِدَاخِلِي رَغبَةٌ قَاتِلَةٌ بِتَحطِيمِ كُلِّ شَيءٍ يَنتَمِي إلَيك ، مِن فَرطِ مَحَبَّتِي وَمِن هَوانِ قَبضَتِيْ . . أَثنِنِي عَن الفِعلِ ، وَتُدوِّي بِي رَدَّةُ الفِعلِ . . وَتُحَطِمُنِي !

بَقِيتُ أُحِيكُ بِألوانِ الصُورةِ التِي سَتَجمَعُنَا مَعَاً . . عُمراً كَامِلاً ، أَفنَيتُ دُعَائِي خَالِصَاً كَي تَطوفَ المَلائِكَةُ حَولَكَ . . وَفِي النِهَايَةِ وَجَدتُكَ تَكسِرُ أَلوانِي عَلى مَرأى عَينِي ، وَتَقبِضُ عَلى قَلبِي بِغَلِيظِ قَرَارِكَ !

صندوقُكَ الأسودُ . . املأهُ بخيباتِكَ الوفيرةِ، أمّا عني . . فأدراجي مفتوحةٌ للسّماءِ، ليسَ بيديّ مَا أُخبئهُ عَن الإنسِ أو الجانّ . . وَاضِحَةٌ جِداً بَيني وَبينَ نفسِي بَرَاءَةٌ مُطلَقَةٌ . . وَاتِفَاق !

الصَفحَةُ البَيضَاءُ تُحفّزُنِي الأَسوَد، لأُطلِقَ العَنَانَ لِغَضَبِي . . دُونَ شُرُوطٍ !

مَا كُنتُ لأصِلَ لهَذهِ العَناوينِ لَولا وَجَّهني إصبَعُ اتهامِك . . أنتَ مُتورّطٌ جِداً بالتيهِ، تَبعتُكَ . . سايَرتُ مُنعطفاتِكَ، اجتَزتُ مَطبّاتِكَ . . عَبرتُ شَائِكَ حُدودِكَ، سلِمتُ مِن الرَّصَاصِ المُوجّهِ نَحوِي بأعجوبَةٍ ومُعجِزَةٍ . . تَسألُني كَيف ؟ حَسبِي أن بُوصَلتِيْ سَمَاءٌ !

ما بَيني وبَينَك جُندٌ مِن الشَيَاطِينِ . . وَمَلاكٌ وَاحِدٌ !

مُكتَفِيَةٌ بِوَرْدَةٍ وَاحِدَةٍ، لأقولَ بِأَن فِي دَاخلي حَدائِقَ مَن وَرد . . ، لكنِي لَستُ مُكتفِيةً بعصفورٍ واحِدٍ، أَحتاجُ إلى سِربِ عَصَافِيرٍ أُغلِقُ عَليها قَفَصِيَ الصَّدرِيَّ . . وَأَنَامَ !

مَقسومَةٌ عَلى العَجزِ . . بِمِسَاحَةٍ أَصغَرَ مِن أن تَحتوِي وَحشَتِي . . أَمَّا السَّاحَاتُ المَفروضَةُ أَمَامِي . . فأَوَدُّ أَن أَركُضَ عَلى الأسطُرِ وأطيرْ . . لكِن هُنَاكَ قَيدٌ يُثبِتُ ظِلّي بأرضٍ مَزروعَةٍ بالألغَامِ . . ، فَكَيفَ لا أُبدِي بَعدَ كُلِّ هَذا . . وَحشِيَّتِيْ ؟ !

مَحبتِي بَاتَت مُشوَهَةً ، لَستُ عَلى دِرايةٍ بِكَيفِيةِ كَسبِ قَلبِي الذي مَالَ نحوَ الجَليدِ . . ولا نِيَّةَ لي بإشعَالِ فَتيلِ شَمعَةٍ واحِدةٍ . . كَي أكونَ على اطِلاعٍ عَلى مَا سَبَقْ !

مُرتبِطَةٌ بِكَ اسماً دُونَ رَسمٍ . . ذَاكِرَةٌ مَرِيضَةٌ دُونَ ذِكرَى ! هدَفِي هُرُوبٌ يَليقُ بِسَلامَتِي . . وَجُرحٌ فِي أَعماقِكَ لا يَلتَئِمْ !

الحَيْرَةُ التي تغلّفُني . . ليست تُشبهُ أشرطَةَ الحريرِ المُزركَشَةَ اللمّاعَةَ ! إنها أشبهُ بطرحَةٍ بيضاءَ مائلةً إلى لونِ الغُبارِ الكثيفِ . . ، خبّأتُ تحتَها وجهي ومَضيتُ وراءَ بصيرةٍ من نارٍ، ومُنذُ ذلكَ الحينِ وأنا أتوارى عَنِ النظرِ . . تقودُني نوايايَ الشاحبَةُ نحوَ تعثُّرٍ . . خوفي أن تكونَ نهايةُ القصّةِ . . حُفراً !

ما الذي كتبهُ أعلاهُ؟ هل ما زلتُ بقلبٍ سليمٍ رُغمَ تهشُّمِهِ؟ ! أما زالَ دَمي أحمراً؟ . . لا أريدُ أن أتحوّلَ إلى شيطانٍ يسفكُ بالأحلامِ . . أحتاجُ إلى أن أقبضَ على نفسي وأهدأ بعدَ شهيقٍ أسرقُ منهُ ما تبقّى من رحيقْ . . ونَزفٍ كبيرٍ أنفضُ فيهِ عنّي كلَّ هذا الحريقِ !

هالتي مشروطةٌ بالهدوءِ، كلُّ هذا الهراءِ الذي يتخبّطُ قُربَ الصّوتِ لا يعنيني، ملجئي صمتٌ مُطبقٌ على اللاوصفِ . . ومأمني من هذهِ الفوضى . . نَوْمٌ .

مَشهَدٌ آخر . . أحتَاجَهُ بِشدّةٍ لأعِي أنني لا أَزَالُ عَلى السَّطرِ أكتُبِني صُمُوداً، زَاويةً جَديدةً . . وَلو مَفتوحَةً عَلى حَدائِقِ الرُّوحِ، مُغلَقَةً عَلى رُفوفِ العَتب . . ، أَحتاجُ إلى معنًى أَسمَى مِنَ غَضَبٍ . . وَمَقعدٍ أَرقُّ مِن أن يُحمّلَ كَاهِلي مَزيداً مِن التَّعب . . أَحتاجُ إلى صُورةٍ أوضَح، إطَارٍ أجمَل . . ثَباتٍ مَوقوتٍ بِفَرحٍ لا يَشوبُهُ شَكٌّ . . يَقينٍ أكبَرُ مِن أَن أحملهُ بِكفّي . . وَنَفسي كَمَا كَانت قَبل خَيبةٍ . . .

لَمن أمنَحُ كُلَّ هَذهِ الابتِسَامَاتِ المُزَيّفةِ؟ أريدُ أن أتوارَى عَن عَلامَاتِ الاستفهَام، أن أُثبتَ لِمرآتِي أنني مَا زِلتُ بِخَير . . أَخَافُ أن أبدُو بِحَالٍ غَيرَ تِلكَ الحَالةِ أمامَهَا فَتلومَني وَأَلُومَهَا وَيحتَدُّ الجَدلُ بَينَنَا . . أغضَب . . فَتَكسِرُني ! أخدِشُهَا ! ! . . وَيبقَى كِلانَا دُونَ نَزِيفْ . . !

كَمَا وأنَّ الابتسامَةَ أسهَلُ مِن أن أبادِلَكُم شُعوريَ المُبهَمَ . .

سَأكونُ أنانيَّةً هَذهِ المرَّةَ بالحُزنِ فإنَّ لديَّ جَيشَ حُزنٍ يكفِي . . لا أحتَاجُ مِدادًا أو احتياطًا . . مَهمَا حَصَلَ لن أطلِعكُم على بُكائِي فِي الليلِ، ولا عَلى المُتَفحِّمِ مِن قَلبي . . ولا حَتى أشبَاهِ الكَوابيسِ غيرِ المَفهومَةِ التي تُراوِدُني . . لَنْ أُفصِحَ عَن مِقدارِ العَجزِ فِي جَبينِي، أو ثِقَلِ خُطوتِي، . . . . . فَقَط أَمْهِلُونِي عُمرًا . . حَتى أَسْتَعِيدَ شَغفِي بالوُضُوحِ أمامَكُمُ . . ! وَأبتَسِمْ . .

الخَفقَةُ التي تَسكُنُني . . أَجِدُها أثقَلَ مِن أن أحمِلَهَا دَاخِلَ قَفَصِيَ الصَّدرِيِّ . . مُجبَرةٌ عَلى حَملِ هَذا القَلبِ، غَرابَتِي تَتَجلَّى فِي الوَصفِ حقًا، كيفَ بعدَمَا تَكسَّرت جُدرانَهُ وَتناثَرت زَخارِفَهُ، وَفقَدَ صُورَهُ المُرتَّبَةَ فِي رُفوفِ حُجراتٍ اعتلاهَا الغُبَارُ مُنذُ الأزَلِ . . بَاتَ أثقَلَ؟

قَد لا تَكونُ السُّطورُ مُمهّدةً لإلقاءِ شرّيةٍ تليقُ بالحالةِ الآنَ . .
لَكِن فِي المَساحَاتِ البَيضاءِ المُشرّعَةِ عَلى حُدودِ الصَّفحةِ، عَرائِي
الوَحِيدُ !

. . وَكأنَّ وُجهَةَ حَمَائِمِ السَّماءِ باتَت مُبهمَةً ، لا فُصُولَ تَستفِزُّ بِهَا
الجَنَاحَ، وَلا فَواصِلَ تَدعوهَا للهَديلِ !

أُشبِهُ هُروبِيَ المؤجّلَ، أُشبِهُنِي قَبلَ حَاجَتِي لانحسَارٍ مُعَجّلٍ . .
أُشبِهُنِي عندمَا كُنتُ مُجَرّدَ طِفلَةٍ لا تودُّ أن تَعِي مُرورَ الأيامِ بِهَا !
رُغمَ أنَّ العُمرَ كدَّسَ غُبارَهُ على كتِفَيَّ، إلا أنِّي لا أزالُ
أركُضُ دُونَ هُدىً . . دونَ وُصُولٍ، وبلا خَرِيطَةٍ . . أتجاهَلُ خُطُوطَ
يَدَيَّ، أسايِرُ رَغبَتِي بالفِرارِ مِن هُنَا . . وَأُداري الدُّروبَ بزَرعِ وَردَةٍ
مع كُلِّ ظِلٍّ يَمَسُّ الأرضَ . . أضيّعُ ألعَابِي فِي الجِهاتِ، وأبكِيْ . .

مُعتَقَدِيَ القَديمُ بأنَّ نِهَايَاتِ القِصَصِ السَّعيدَةَ مُجرَّدُ كِذبَةٍ، . . لطالَما كانَت تُعجِبُني تلكَ النِّهَايَاتُ التي لا تستندُ إلى مَنطِقٍ، تلكَ التي تنتَهي بمُعجِزَةٍ. . أو التي لا يليقُ بها بدءٌ بعدَ صَحوةٍ! والمَفتوحَةُ على مصرَعَيِّ الصِّراعِ أيضاً لم تَكُن تجذِبُني. . ، أنا أقرَبُ لما امتلكتُ من مَبدأ و مُبتَدَأ. .

لَم أخسَرْ، رُغمَ أنني الخَاسِرَةُ دائماً في حَربي مَعَكَ. . أنا الرابِحَةُ أخيراً، لنْ يُقبَلَ منكَ أن تتَّخِذَ دَورَ الضَّحيَّةِ وتتقوقعَ على أعذارِكَ الوَاهِيَةِ، لنْ أستمعَ بكُلِّ حَالٍ لمَا تُذعِنْ. . ولا ثِقَةَ لديَّ بوضعِكَ في مَجَالِ مُحاكَمةٍ، لأنَّ الخُذلانَ الذي مَنحتَني إيَّاهُ أكبرُ من أن يُجابَهَ بالقانونِ أو أن يُقارَنَ بالمَسألةِ. . إنهُ أثقَلُ من أن أحملَهُ في قلبيَ الصَّغيرِ. . وأعمَقُ من أن تَفهَمهُ بعقلِكَ الكبيرِ. . لذا، ولأنَّهُ لا مرجَاءَ من فَاقِدِ الأهليَّةِ فقد خَلَّيتُكَ وحَالَ سَبيلِكَ، مرأفةً بما تبقَّى منكْ.

لَستُ رهنَ إشارَتِكَ. . ولَستُ رِهَانَاً لحَاضِرِكَ! . .

يَتفاقَمُ شُعُورُ الغُربَةِ بي . . كُلَّمَا تَمادَتِ الأيامُ بتأجيلِ حُرِّيَّتي بِمَوعِدِ لِقاءٍ مُدَبَّرٍ ! . . وَكأنَّ العالَمَ يَنتشي بمهرجانِ الوَجعِ المُقامِ عَلى أدراجِ مَسرحِي . . أراهُ يحملُ إكليلاً مِن وَردٍ وَغارٍ، كأنَّهُ يتودَّدُ لِنِهايتي . . . .

وَعدُ السَّعادَةِ الذي أهمَلتهُ . . باتَت استعادَتُه بالقوَّةِ مِنكَ حَقٌّ مَشروعٌ ! لا أؤمِنُ باتِّفاقٍ تُطَبَّقُ فيهِ شُروطاً جَزائيَّةً عَليكَ . . هذا قَلبي، لَطالَما كانَ مُسالِماً لأبعَدِ الحُدُودِ مَعَكَ . . لكِن، لا تأمَنْ سِلمِي، فَلا مُطلَقَ لَديَّ، وَالتَّعديلُ فِي بُنُودِ حُبِّكَ . . باتَ وارِداً !

قَلبي لَيسَ بمُنافِقٍ، لقَد أحبَبتُكَ أكثَرَ مما يَنبغِي . . والآنَ أكرَهُكَ كَما يَجبُ، لا تُساوِمِ عَلى خَفقَةٍ هَزَّت حُجُراتِ القَلبَ . . فَلا يُمكِنُ لشُحنَةِ كَهرباءٍ ساكِنَةٍ أن تُرصِّعَ موضِعَ النَّزفِ نُجُوماً !

تَواضُعِي بالغِيَابِ عَنكَ مَوزونٌ بِقَافِيةٍ لا تُؤَدّي إليكَ . .
كَمْ يَلزَمُني مِنَ السَّيرِ بَعيداً عَنكَ حَتى لا ألتقِي بِكَ مُصَادَفَةً دُونَ مِيعَادٍ ؟ !

ولأنَّ المَسَافَةَ الفَاصِلَةَ بينَ الرُّوحَينِ مَهزومَةً، كَانَ لا بُدَّ مِن بُكَاءٍ هَمَجِيٍّ ناحيَةَ ذِكرَى لا تَزالُ تدورُ مدارَ كَينُونَتِي . . .
الأمرُ معقَّدٌ لا يطالُهُ تَصنيفٌ، وَالحِكَايَةُ طَواهَا النّسيانُ . . أمَا العنوانُ فَلَمْ يَتَصدَّرِ الصَّفحةَ الأولى بَعدُ، عَن قِصَّةٍ لَمْ تُنتَه أتكَلَّمُ، عَن نصٍّ لَمْ يَبْدأ حَتى الآنْ !

. . أَوَدُّ لَوْ أنَّ البَنفسَجَ يَفترِشُ صَفحاتِي بأُمنِيَةٍ، أو أنَّ الجُورِي يَعتلِي أَسوارِي بِشُمُوخٍ . . أو . . يَتَدَلَّى اليَاسَمينُ الأبيَضُ مِن رَأسِيْ . . . أُرِيدُ كُلَّ الوَردِ لِي، أُكَلِّلُ فيهِ جِراحِيْ وَأنسَجِمْ . .

يَتقاعَسُ البَوحُ بِي، وَأَستعيضُ عَنِ الصَّوتِ . . بأُغنِيَةٍ تَحنو عَليَّ مِن شَاسِعِ الوِحْدَةِ . .

تَرنيمَةُ غَفوٍ، تَصطَادُ خَيالينِ فَوقَ رَأسِي، تَترُكُ لِيَ السَّمَاءَ مَفتوحَةً عَلى الرَّسمِ، وَلَيتَنِي كُنتُ أُخبِّئُ فِي جُيوبِ عُمرِي زَهرَ بُرتقَالٍ كَي أَثمِرُ الآنَ.. بِشَهَادَةِ عُصفورينِ شَقِيَّينِ على أَعتَابِ الشُّرفَةِ...

احتَرفتُ انتظَارَكَ سَاعَاتٍ إِضَافِيَّةً.. مِهنَةً، واحتَرفْتَ اللجوءَ إلى قَلبِيْ بَعدَ كُلِّ كَارِثَةٍ.. هُدنَة!

دَعوَةٌ مُتَأخِّرَةٌ للرَّقصِ عَلى شَفيرِ هَاوِيَةٍ! هَذا مَا بَدا لِي وأنتَ تُثنِينِي عَنِ المَرحِ قُربَ حَرِيقِكَ، لَستُ أَعلَمُ بِمَواقيتِ دقِّ طُبولِ الأَزمَةِ فيكَ..

قَد تَكُونُ مُعطياتِي فِي الحُبِّ واهِنَةً.. لَكِنَّ مُقَامَاتِ وُجُودِكَ يَا عَزيزِي بَاهِتَةٌ!

تَبعِيَّاتُ الرَّحيلِ لا بُدَّ مِنهَا، بَعدَ خُطوتينِ أو أقَلّ . . لَنْ أضَحّي بِحُضورٍ بَهيجٍ، وَلَن يَنفَعَ تَنَازُلُكَ عَنِ الموعِدِ المُتأخِرِ، لا شيءَ يَرُدُّني لِذاتِي غيرَ حُلْمٍ وَدَمعةٍ؛ حُلْمٍ أُواكِبُ فيهِ المَسيرَ على خَيطِ صُمُودِي وَمِن تَحتِي سَماءٌ . . وَدَمعَةٌ؛ أَدفِنُهَا تحتَ وِسَادَتِي . . وَأَنامْ .

لا شَيءَ يُرهِنُ بَهجَتِي فِي إطَارِ صُورَةٍ مُقفَلَةٍ عَلى الألوَانِ ! أُريدُ لِجَمِيعِ الألوانِ أن تَكونَ ذَاتَ مَعنى وَأَثَرٍ . . فَلا يَسعُنِي إلا تَلوِينُ الحَاضِرِ، وَنَحرَفَةُ أُنيني عَلى صَفحَةِ العُمرِ . . خَبَرًا !

مَا كُنتَ تُجيدُ الخِفَّةَ يَوماً، نَاهيكَ عَنِ الثِّقَلِ المُتَرَاكِمِ فِي صَدرِكَ . . لكِنَّكَ أنشأتَ فِي سَمعِيْ زَاوِيَةً لِصَوتِكَ، حَيثُ أَبدَكتَ وحشَةَ ضَجَرِي بالسَّهَرِ !

فِكرَةٌ قاتِلَة قد تُرديني رَهينَةً، طالما لم تحترق وَسقفَ رُؤاكَ فِي مَنامِي، لكنّي لَنْ أقولَها لكَ، ليستَ سِرّاً أُحجيَتي عَنكَ . . لكَ أنْ تفْهَمَ تَداعيَاتِ صَمتِي . . وَليسَ مَقبولاً مِنكَ الكَلامُ .

تَقويمُكَ لا يُشبهُ فَصلَنَا الحَالِيَّ، وَكأنَّ فِي شِتائكَ عَواصِفُ لا تُشبِعُ نُبوءَةَ أحلامِكَ وَلا تُغني حُضُورِي مِن جُوعٍ . . !

نُطارِدُ شَغفَنا بِسِلالٍ مَخرومَةٍ، لَيتَ للتُّفاحِ فِي شَجرِ حَديقَتِنا مَلجَأً، تَأشيرَةُ العُبورِ نَحوَ يَدينَا مُوغلَةٌ، والسَّمَاءُ مُفتوحَةٌ عَلى صَدى رَبيعٍ يَقِفُ مَذهولاً بِغُربَتنا !

دائِرَتِي . . حَمَلَةٌ وَاهِنةٌ لِصُمودِ الدَّهشَةِ فِي تَفَاصيلِ العُمرْ !
مِرآتِي اختلافٌ يُختصِرُ المَلامِحَ بالوضُوحْ !
الانتظَارُ فِي أمرِي وَعُمرِي . . أشبَهُ بالأبَد !
حِينَ أَقرأُ اسمَكَ قَاتِلي فِي سِجلِّ مَوتِي . . . أنهَضْ ! . .

أحاول أن أُصوّر لنفسي مشهداً يليق بسقوطك . . كي أُهوّن على قلبي تقبّل الأثر . . ! كأنك لا تُجيد السباحة، لكنك ترمي نفسك لتهلك بحر ليس له قرار . . ليست في يدك دفة ولا أمنية . . ولا جهاز أُكسجين مملوء بالغاز !

. . كأنك مُغامر بلا سكين . . تتهافت على لحمك الذئاب، تهشّها بعصى مُفرغة من الداخل . . تُحاصرك نحو وادٍ . . فتهمي من موتٍ إلى آخر راقصاً من الألم.

. . كأنك طيار دون جناح . . تُساوم على الرياح وتسقط، فلا تحملك الغيمة الوردية التي حلمت بها ذات ليلة . . ومن فرط حظك . . لن تستوعبك الغابة الخضراء !

مُتآكلة من داخلي . . أُقايض الفرح بهُدنة لا مجال فيها بالقبض على أدنى شعور في . . كأن كل شيء يتهاوى بصورة بطيئة . . بطيئة جداً للوصول إلى موت مبكر أو شيخوخة أنيقة . . الأمر أقرب إلى الوخز ناحية القلب . . بريشة من أسود بجعتي . . .

مِن دُونِ قَافِيةٍ . . أَمرَانِي عَلى السَّطرِ أنحَنِي . . وَأَحنِي مَعْنَايَ حَدَّ ظِلِّي المُتَمَرِّدِ عَلى فَوضَى حَواسِّكَ !

أَمرَاكَ تَستوطِنُ أُمنيَاتِي كَالخَبرِ المُزخرَفِ قَابَ قَوسَينِ مِن تَأجِيلٍ . . وَأَمرانِي عَلى عَهدِ اللامُبَالاةِ أُسايِرُ وَمضَكَ وَ أَنسى نَفسِي . .

مُنزعِجَةٌ مِن سُطُوعِ ثِقتِكَ . . مُفرِطٌ بِأَشعَّتِكَ ! كَفَاكَ تَمَادِياً كَي لا تَحْتَرِقْ !

ليسَ بِالضَرورةِ أَن أَكونَ بِكَامِلِ قِوايَ العَقلِيَّةِ حِينَ أَكتُبْ . . يَكفِينِي نُعَاسٌ واحِدٌ . . وَالكَثِيرُ مِنَ النُجومِ لأبدأَ العَدَّ مِن اللانِهَايَةِ . . إلى الرَقَمِ القَابِلِ للإحصَاءِ .

عَلَيَّ فَرضُ المُسَمَّيَاتِ الأصعَبِ عَلى مُفرَدَاتِ النِدَاءِ . . و استِكَارِ المَسَافَاتِ القَصِيرَةِ بِينِي وبَينَكَ . . ! !

حَسِبتُني عَبَثاً أَعُدُّ خُطُوطَ العُمرِ فِي بَاطِنِ كَفّي . . يَبدُو أَنَّ العَجزَ بَنَى مِن لا شَيءٍ فِي مُحِيطِ قَلبِي انكِسَاراً شَامِخاً لا يَزولْ . .

. . كُلُّ السَّاحَاتِ أَمَامِي مُغلَقَةٌ، لا أَحَدَ غَيرِي يُصَارِعُ مِن غيرِ مَعرَكَةٍ . . لا أحدَ بَعدِي يَتلو آيَةَ الكُرسِيِّ عَلى قَلبِي . . إن أَشَحتُ بِوَجهِي لأَقمَارٍ تُؤدِّي إلى مَوتٍ سَرِيعٍ . . أَرَى مِن بَعدِهِ سُلَّماً للأنبياءِ، وَلَستُ إلا إنسِيَّةً مِن طِينٍ وَكَستَنَاءْ .

يُنَازِعُنِي شُعُورٌ بِالخَوفِ لا يَرحَمُ . . مُضَافاً إليهِ وَجَعٌ فِي القَلبِ لا يَهدأُ . . مَطرُوحَاً مِنهُ وَعيٌ لَمْ يَبخَل عَليَّ بِتَردِيدِي التَسَاؤُلَ تِلوَ الآخَرِ.

ضَيَاعُ اليَقِينِ مَن بينِ يَدَيكَ لَيسَ حَادِثَاً عَرَضِيَّاً، إنَمَا مَشهَدٌ مَرئِيسٌ فِي دُوَامِكَ . . إنَمَا هُوَ نِزَاعٌ يُفرِضُ اتِّسَاعَهُ مِلءَ مَدَارِكَ !

لَستُ أشبهُ أحداً ! . . عَليكَ أن تتذكرَ هَذا جَيداً، لأنني مُفردَةٌ بوجعِ الرُّوحِ، وَمُستَقلَّةٌ بأحلامِي . . مُختلفَةٌ لا أقبلُ القسمَةَ إلا على المُستَحيلِ . . وإن كانَ جَمعِي مُمكِناً ، فإنَّهُ لَنْ يَكونَ مَعَك . . . عَزيزِي، لَستُ مُعادلةً صَعبَةً لو فَهمتَ مُتغيّراتِ القَلبِ . . لَو اختَصرتَ دَلالاتِ الوُصلِ . . لوْ أطبَقتَ عَلى صِفرِ المسألَةِ بيَدينِ حَانِيَتَيْنِ !

يَكفِنِي فَخراً أنني جَابَهتُ حَربينِ عالميَتينِ ثُمَ خَرجتُ بسلامَةِ قَلبي وَبراءَتِهِ يَقيناً بأنني مُحاربَةٌ أبداً، رَغمَ أني لا أملكُ رُمحاً مَسموماً أو دِرعاً مَتيناً ! حَسبِي قَلبِي الذي خَاضَ فِي مُعتَركِ جُنونِكَ وَلَم يَتَّسخْ !

لا تُقَابِلُ إدمَانِي عَلى البُكَاءِ فِي مُفترقِ احترافِكَ للغِناءِ . . لأنني لَنْ أشارِكَكَ اللَّحنَ . .

هيِئ لِفلسفَتِكَ مُلتجَأً قَبلَ أن تَندلِعَ ثورَةُ غَضَبِي عَليكَ، وَعَلى السِيَاسَةِ التي تَتَخِذُهَا عُذراً فِي إمَارَةِ شَرقِ قَلبِي . . .

صَنعتُ فنجانينِ من القهوةِ، الأولُ كي أمهّدَ سطرَ الكتابةِ عنكَ.. والثاني إليكَ، ولكنني سأحتسيهِ على شرفِ انتهائكَ...!

..لا أحتاجُ إلى رسالةٍ أولى كي أتجددَ وسطورَ مدونتي.. أحتاجُ لإيماءاتٍ وفيرةٍ تُطلُّ عليَّ كلما تعثرتُ بنقطةٍ أنهتِ النصَّ ولمْ تنهِ احتمالي!

أكتبُ في دفتري بعضاً من الصُّورِ، أُغلّفها بشرائطَ سوداءَ وأستودعُها ركنَ استكانةٍ.. أو رفَّ انتقامٍ!

لا أريدُ أن أبقى في مهبِّ العمرِ مجردَ حصوةٍ تتعثرُ بكينونتِها..! أريدُ أن أكونَ الحصوةَ التي تفقأُ عينَ الغولِ الذي يُكبِّلُ أحلامي الصغيرةَ!

كَـمْ أَنتَ آثِـمٌ حِينَ تُعِدُّ جُيُوشَكَ لِلهَرَبِ مِن مَبعُوثِي المُحمَّلِ بِالأَسئِلَة . . !

مُحاوَلَتِي لاستفزازِ ضَمِيرِكَ لا تُغنِي مِن جُوعْ !

كَانَ عَلَيَّ أَن أُفهِمَ مَا يَدُورُ فِي أَدرَاجِكَ المَفتُوحَةِ، بِالوَقتِ الذي تُقفِلُ فِيهِ بِالمَفَاتِيحِ عَلَى الكَلامِ المُخبَأِ فِيكَ . . !

يا قَلَمِي . . ابقَ مَعِي بِكُلِّ عَهدٍ، فَإِنِي أَحتَاجُكَ مُتَنَفَّسَاً لِوُجُودِي وَ رَفِيقَاً لِوَحْدَتِي . . وَجَوَابَاً لأَسئِلَتِي . . استَوعِبنِي لُطفَاً وَاحمِلنِي بَجَعَةً أَنِيقَةً، كَمَا تَحمِلُ شَغَفَ الحُروفِ إِلى بُحَيرَةٍ مِن حِبرٍ . . بِرَقصَةٍ أَنِيقَةٍ . . وامنَحنِي البَصِيرَةَ !

لَيسَ هَذا هُوَ الوَقتُ الصَّحِيحُ لإِعَادَةِ جَدوَلَةِ العِتَابَاتِ القَدِيمَةِ، وَإِنِي لا أَقبَلُ التَّأجِيلَ فِيكَ مَدفُوعَ الفَوائِدِ !

مرتبتي عالية . . أعلى منك بكثير حتى لو اعتليت منصة غيم !
في صدري نجوم وعلى كتفي شهادة باجتياز الوجوم !

أرقص بمحاذاة عينيك دون أن أداري جروحي، لا أشعر بعقدة الندم مثلك، ولا بي قصور ناحية العدم . . !

أرى عناوين العربضة تطفو على سطح بحيرة ضحلة، لا أجد لملامحي فيها دليلاً . . ولا أعلم إن كنت سأخرج منها بقدمين قادرتين على السير بطبعان أثري طيناً . .

. . وأردت أن أختزل لك في كتابي سيرة لا تطويْ، لكنك كنت مصراً على أن تكون البطل الذي تعثر بفاصلة سقطت من جيبه . . فانتهى، لكنها ليست كنهاية بطل شجاع.

إنَما مَا أنا به من صُنع حَالكَ وَأحوالكَ، خَمّن لضحكَتي تَعاسَةً . .

سَتجدُ لظروفكَ سَبباً مُتورّطاً فيها، خمّن لجُنون أعصابي وَحدَةٍ لساني

مَعنى، سَتجدُها مُصوّبةً نحوي أصابعَ اتّهامكَ، وَأضف للقائمَة الرماديَة

وُعودكَ الأعلى من عَناقيد العنَب، وَمواعيدكَ التي لَمْ تُصَنّف ضمنَ

مَواقيت الأرض، اعتل منصّةَ هَذا الكَمّ من الإنجَاز، وَانتَحرْ!

عُذراً . . . افسحوا لي طُرقَ الصّمت . . أبتغي أن أقتنص عَن

سَطر حَالتكُم سَلاماً!

يُسعدُني أن الوَردَ الذي وَصَلَني لا يحمل أدنى نَوايَا تُخبّئ مَعنى مَوتهَا

في ألوان شُحوبي، وَيُسعدُني أن لفراشَات مَا أطلقَ منهَا . . مَا زَفّ

لتَورُّطي بحُلْم شَفيف المدَى! وَلا يُسعدُني أن أقفَ على بَاب صَدّكَ

لوفَاق مَا أتمَنى من ثَبَات، وَقفةً مَائلةً!

أرغبُ بأن استبدلَ مَكانَ قَلبي بكيس مَليء بالبُذُور وَمقصّ؛

لأشهدَ نموَ الوَرد في أعصابي، وَأقتصّ منكْ!

لا يُمْكِنُنِي ادّعَاءُ الجَمَالِ . . طَالَمَا أَملِكُ هذِهِ الفِكرَةَ السَّوداءَ التي تُسَيجُنِي، سَامِحْ أَنانِيَةَ هَذا الوَمضِ وَاتركهُ لِشَأنِ خَوفِهِ . . دَعهُ يرتّبُ على انسجامِهِ، صُبْحَهُ وَمَسَاءَهُ . . غصَّتَهُ وَضِحْكَتَهُ . . دَعهُ لِي كَامِلاً إلا مِن حَيزِكَ بَعدَ استسلامِكَ !

يا مرآتِيْ . . . . لَيتكِ تبوحينَ بِمَا خَفِي مِن نَوايَا لأُحرِقَ وَصَايَاهُم . . كَي لا يَعتِقَ مَا تبقَّى مِنهُم الشَّرَّ !

أيُّ مُقَدّمَةٍ قَد توجّهُ المسيرَ . . لا شَيءَ يوجّهُ أيامَنا لِمُنحنَى الرَّسمِ غيرَ نَوايَانا ، ولأنَّ مَفاتيحَ الفَرحِ تتَّصِفُ بالنُّدرَةِ فِي دَربِ دَورِانِنَا ، لا بَأسَ باقتِنَاصِ بعضِ أُمنيةٍ مُتوَجةٍ بالنُّجومِ فِي عَهدِ مَسيرَتِنا المُثقَلةِ بالتَّعبِ . . لِهَذا سأدعُ للمَساءاتِ ما تَفرِضهُ على سَطرِ المُثولِ مِن كَلِمَاتٍ لِتَفرِدَ جَنَاحَيَّ حَتى أكتُبَ ما فِي جَعْبَتِي قَربَ مَأمَنِ بَجَعَتِي، بِبُحيرَةٍ زَرقَاءَ مِن حِبرٍ وَوُعُودْ .

الخُرُوج مِن الحِكايةِ المُتهالِكةِ إلى الضوءِ، يَحتاجُ عُمراً إضافيّاً يُرصَفُ فَوقَ السَاعَاتِ النَاقِصةِ، وبِهذا أجدُني أحاولُ جُهدِي لِبلوغِ سَلالِمِ الرِّفعَةِ، وأجدُني مَا عُدتُ على عَهدكَ بالأخضرِ أخُطُّ زَخرَفَتِي، أودُّ لو أطوي الرَّمادَ على أصَابعِ الأمسِ وأستعيدُني أميرةً ليستَ هَاربةً مِن القَصصِ بِثوبٍ مُزَركَشٍ، إنَمَا بِصُورةِ مُحاربٍ عَنيدٍ، كَي أسيرَ واثِقَةَ الخُطَى على طُولِ السَجَّادَةِ الحَمراءِ المُؤدِّيةِ إلى صَفحَةٍ مُشرعَةٍ على مَا يَليقُ بالوَصفِ المُفرَغِ مِن تداعيَاتِ النَدمِ !

إمَا أن تَكونَ على قَدرٍ مَسؤولٍ مِن نُبوءَةٍ مَا يَنبغِي، وَتَدفعُني للتَسليمِ بِيمينِ رؤَاكَ . . ولا خيارَ آخرَ مُتاحٌ لَكَ، مِن بعدِ أن وَثَّقتَ بِي مَرَابِطكَ الهشَّةَ . . بِأُمنيَةٍ، أو تعقِدَ خَيبَتَكَ وَسْماً فِي صَدرِيْ . . و تَرحَلْ !

لطالَمَا كَانَ الشَاهِدُ عَلى المَشهدِ هوَ المَقتولُ بِحَسرتِهِ لقلَّةِ حيلَتِه، هوَ الذي غَالِبَاً مَا يَتمنى لَو كَانَ المَقتولَ تَمَامَاً، أو القَاتِلَ أبداً !

كَمْ أَرغبُ بالثأرِ مِن هَذا الشُّعورِ داخِلي، اجتيَازِ المَرحَلَةِ العَمليَّةِ بقَرارٍ يُحرّكُ من تحتِي خُطوَتِيْ . . لِصَيرٍ أسهَلَ . . مِنَ السَّهلِ تمهيدُ الأحلامِ بكلامٍ وَردِيٍّ وَمُقدّمةٍ غِنَائيَّةٍ . . ، غَايَتِي التي لا تُدرَكُ أُشبَهُ بمادَّةٍ إعلانيَّةٍ بميزانيَّةٍ ضَخمةٍ لمُنتَجٍ رَخيصٍ !

مؤسِفٌ أن نُصنَّفَ بالأحرارِ في حِينِ أنَّ سَقفَ حُدودِنَا عَالٍ جداً، لا تَصِلهُ العَصافيرُ، وَلا يَخترِقهُ الصَّدَى !

لَستُ التي تَرضَى بدَورِ الضَّحيَّةِ، وَلا تقبَلُ بأَقلَّ مِن فَصلٍ مُكتمِلِ الأبعادِ فِي رُقعَةِ الحَربِ، لَنْ أتنحَّى عَن مِنَصَّةِ إعدامِ الكَلامِ . . لأقولَ حَقيقَةَ مَا أَعِي، صَادِحاً . . وَإن لَمْ تَرُقْ نَغمَةُ مَعنَايَ للجَميعِ، فإنَّ حُكمَ مِيزانِي يُحتِّمُ عَليَّ المُوَائمَةَ بينَ خَارطَةِ الدَّربِ وَمُنحَنَيَاتِ الدَّفْقِ .

وَحينَ كُنتُ أُذرِفُكَ بُكاءً . . كُنتَ تَخرجُ مِن عُيُونِي دَمَاً أزرَقْ . . !

وَحدَهُـمُ المَوتى صَادِقِين فِي صَمتِهِـمْ . . . ! أَمَا نَحنُ الأَحيَاءُ، فَسَتَأتِي لَحظَةُ تَهدِيدٍ . . سَنُجِيدُ بَعدَهَا بَذلَ الكَثِيرِ مِنَ الكَلامْ !

الذَّاكِرةُ تَكبُرُ فِي العُزلَةِ . . وَالقَلبُ يَشِيبْ، أُمِيْ، أَبِي، لَقَد كَبُرتُ كَثِيراً، وَلَكِنني لا أُرِيدُ أَن تَرَانِي كَبِيرةً إلا فِي الفَرحِ! أَتَمَنَى لو أَبقَى صَغِيرةً فِي الحُزنِ بِعينيّ قَلبِيكُمَا . .

لَنْ أُمْلِي على العناوينِ جِهةً لِرصدِ نَشرَةٍ عابِرَةٍ، فإنَّ المَعنى المُنخَطِفَ يَتَهاوَى مُتَرنِّحاً على هَامشِ الصَّفحةِ، ولَستُ التي تُرِيدُ سَطراً مُتصدّعاً، ولا التي سَتَقبلُ بِشُرفَةٍ مُضرَّجةٍ بالصَّخبْ . . إني أَحتَاجُ إِلَى مَعنىً خالِصاً مِن رَمَادِ الوَصفِ، يُؤدّي لِمَرايَاكَ التي تَشفُّ عَن رُؤاكَ، ولِملامِحِ ضِحكَتِي فِي كَستناءِ عَينيكَ . . ، حِينهَا فَقَط قَد أَستعيدُ بَرَاءَتِي بالحُلْمِ وَشَغَفِي بالقَصِيدَةِ . . . !

لا بأسَ مِن أَنْصَافِ حُضُورٍ . . فَعَلَّهَا تَكتَمِلُ ذَاتَ غِيَابْ . .

كَانَ حَرِيّاً بِكَ أن تعلَمَ أنني لستُ صَفصافَةً كَي تَسندَ المُتكسّرَ مِن أغصانكَ عَليَّ، وَتُراوِغَ قَلبي عَن عَاصِفَةٍ مُستَبدَّةٍ بِكيانِيْ . . ! وأنني لستُ شَجرةَ وَردٍ تطرَحُ الكَرَزَ وَتَتغذَّى عَلى الغَضَبِ مِنكَ كَي تَطرَحَ الأسئِلَةَ بَدلاً مِنَ الثَّمَرِ.

وَدِدتُكَ حكايَةً تُقصُّ كَامِلَةً، لَكِنَّكَ أدنَى مِن أن تَكُونَ بَطَلَ حِكايَةٍ، فانزَوَيتَ بِإحدَى الصَفَحَاتِ . . أغلَقتَ عَليكَ الحَدثَ بَاباً مُقفَلاً، ابتَلعتَ القُفلَ . . وَمَارَستَ البُكَاءْ !

أخَافُ أن أكُونَ لعبَةً، بِفُستَانٍ حَريرِيٍّ مُذهَّبٍ، وَتَاجِ وَردٍ، وَ شَعرٍ مِن خُيُوطِ الشَمسِ، أخَافُ أن أقَعَ بيدِ ذِئبٍ . . فَأُكسَرْ !

لا أريدُ أن أكُفَّ عَنِ الخَوفِ، حَتى وَإن كُنتُ أُريدُ التَغَلُّبَ عَليهِ لأَنْجُوَ مِن سَطوتِكُمَا عَلى قَلبي . . أُريدُ قَتلَهُ رَغبَةً فِي الاختِبَاءِ عَنكَ، أو حَاجَةً بِالهَربِ مِنْكَ . . !

. . ربما تخليلي للأمور واستباقي لأسود الأحداث هو ما يفقدني قيمة وجودي التي قد أستعيدها لو دخلت مجددًا في شرنقتي . . بعدها لن تكون هناك حربٌ داخلي ولا خارجك . .

أنت قاب قوسين أو أدنى من ظروفك المنغلقة على هذيانك بغدٍ وارفِ الوعود، وأنا نقطةٌ على سطر الوثيقة المعقودة على نوايا السعادة المطلقة . . !

تحاصرني أذيال عباءتي السوداء وأنا في منتصف سلالم الوصول، الأمر ليس بيدي . . فسلال الورد التي أحملها تشغلني عن الإمساك بخيوط الفضية المنسدلة من قلبي . . والتي تدعونني للتأني . . وليس من يدٍ تسندني ولا جدار . . !

ليتك تخرج من ذاكرتي بخطأ طبيّ . . أودُّ أن تستأصل من رأسي حضرتك والصداع ! مع أنني أعلم أنك لو خرجت منه . . فلن أهنأ بنوم صوب الحلم، بل سأموت إثر وميضة هاربة !

أنتَ تأتي مِثلَ هَجمَةٍ بارِدَةٍ تَختَرِقُ الدَّفقَ فِي الوَقتِ الضَّائِعِ بينَ فَواصِلِ الكَلامِ . . ! لَنْ يَكتمِلَ مَصيري بِكَ، وَكانَ لِزامًا عَليَّ أن أبقَى مُرتَبِطَةً بِقِصَّتِكَ بِشَكلٍ مُحزِنٍ . . إمَّا بِبِدايَةٍ مَنقوصَةٍ أو نِهايَةٍ تَختزِلُ كِلينَا بِمعنَى بعيدٍ عَنِ الأَعيَادْ !

لَقَد أَخرَجْتَنِي مِن مُدنِكَ كَي لا أقعَ فِي أسرِكَ، وكأنكَ كُنتَ تعلَمُ أنَّكَ السَجَّانُ الذي أتقَنَ دَورَ النَبيلْ !

يا حَربِيَ المَوقوفَةُ عَلى أمرِ الانتهاءِ بِطَلقَةٍ فِي القَلبِ، يَا حَربِهُ المَوقوتَةُ بِصَرخَةِ حدَّ الظُّنونِ بِطَعنَةٍ فِي الظَّهرِ . . يا حَربَنَا المُوكَلَةَ إلى صَفحَةٍ يَابِسَةٍ عَلى خَريفِ العُمرِ . . مَتى نُسلِّمُ للسّلمِ سَلامَنَا وَنَستسلِمْ ؟

ومَا نَجاتِي مِنكَ إلا بِوحْدَةٍ خالِصَةٍ . . ! وَمَا خَلاصُكَ مِن هُنا إلا بأزمَةٍ قَلبِيَّةٍ عَاجِلَةٍ !

لَو أردتَ البُزوغَ كَقمرٍ مَستعارٍ فِي لَيلِ وِحْدَتِي . . لَكُنتَ ! !

لأنني أكثرُ مَن بَحثَ حَولَ السَلامِ، وَجدتُني ألقى حَتفِي وأَخوضُ فِي حُرُوبِ الأَرضِ . . !

علَّمتَ عَناوينَ رِوايتِي كَيفَ يَكُونُ تَمنّي المَوتَ . . حَياةٌ ! منذُ أن مَنحتني مِن أُحجيَتِكَ بنداً وَاضِحاً كَي اعتَلي منصَّةَ الصَّوتِ وَأصرُخَ مِلءَ رِئَتَيَّ بِاسمِي . . وَفهرساً لِكتَابِ العُمرِ كَي أَقرأَ فِيهِ وُجُودِي بينَ يَديكَ . . لا أَمَانْ ! . .

أحتَاجُ إلى أَن أَراكَ فَأَضرِبَكَ . . فَأَقتُلَكَ . . فأستنزِفَ مِن دَمِكَ حِبرَ رِوايَتِي . . أَن أصرُخَ فِي أُذُنيكَ فَأَصُمَّهُمَا . . أَن أضغَطَ عَلى أَصَابِعِ الوَعدِ فِيكَ فأكسِرَهَا . . أَحتَاجُ إلى أن أَنَامَ يَوماً كَامِلاً . . عُمْراً مَنقوصاً . . وَحِكَايَةً مُغْلَقَةً عَلَيكْ !

أيُها الغَائِبُ بِمَحضِ إرادَةٍ وَكَذبَةٍ، مَكانُكَ باتَت أَلوانُهُ فِي ذَاكِرَتِي ثُنائِيَّةً؛ بالأبيَضِ وَالأَسوَدِ فقَط، لا مَكَانَةَ للوَرديِّ فِيهَا أَو مَكَانْ!

أتمنى لَو أكتُبَ نَصّاً يُنصِفُكَ، وَيَستعيدُ حَقّي المَشروعِ مِنكْ!

كَمْ كَانَت أَفكارُكَ سَيِّئَةً يَا عَزيزِي حِينمَا أَحسَنتُ الظَّنَّ بِكَ! وَكَم تَبدو نَوايَاكَ حَسَنَةً حِينَ أَكتُبُكَ بِقَلمِ حِبرٍ أَسودِ اللونِ..! مُفَارقَةٌ تُثيرُ الجَدلَ.

وَأَبقى أَكتُبُ كَي لا يبتَلعنِي رُكنٌ أَسوَد، كَي لا أَرتَكِبَ حَماقَةَ التورُّطِ بِبِناءِ أَملٍ وَارِفٍ، وَالحُلمِ بِنَفسَجٍ صَاحٍ بينَ يَدَيكْ!

كَيفَ حالُ صُمودِكَ المَطعُونِ بِالوَعودِ؟ هَل آمالُكَ الصَغيراتُ لا تَزالُ عَلى قَيدِ الرَّبيعِ تُصلّي لِفَصلٍ مُكتَمِلٍ فِيَّ..؟

ليسَ هُناكَ اتّجاهٌ مُغايرٌ لأفكّرَ بغيرِ مَصيرِ فراشةِ النُورِ . .
فَكُلُّ مَا يُرهِقُني هوَ حاجتُهَا للدوَرَانِ حَدَّ احتراقِهَا . . !

لا شَيءَ يؤهّلُ الانتظارَ ليمدَّ ذِراعيهِ أكثرَ . . فَقَد طَالَتِ
الأَشهُرَ بوَجعٍ في المَفَاصِلِ . . !

لطَالَما كَانَت البَجعَةُ السَّوداءُ مُثيرَةً للشَّفقةِ بلونِ مَا استَدرَكَ
خَارِجَهَا، أظُنهَا قَضَت وَقتاً طَويلاً تحيكُ لنَفسِها ثوباً أبيضَ، مَا جمَّلَهَا
بلَحظَةٍ خاطِفَةٍ . . وإنما تركَ بهَا ذِكرَى أشدُّ ظَلاماً مِنَ الحَدّ الذي أبقاهَا
فِي بقُعَةِ الكِتمَانْ . . ! خُطُوطُ الزَّمنِ المَحفورَةُ عَلى كَفّهَا ليسَت
مَدارِاتِ وُصولٍ، هِيَ أشبَهُ بآثارِ طَعنَاتٍ قَديمَةٍ، لَمْ تَقبِض عَلى رُوحِهَا
لكنَّهَا حَطَّمتْ فيهَا القُدرَةَ على استيعَابِ الفَرحْ . . ! وَجعي عليهَا
وَعَلى نَفسِي حِينَ أَراني فِي مِرآتي أُشبِهُهَا . .

فِي تَفاصيلِي المَحْفُورةِ بالخِذلانِ وَقَلبي النَّابضِ بالوَجعِ . . وَعينَيَّ اللتين اسودَّ حَولَهُما مِن ثِقَلِ الوَعي . . لا حِدَّةَ النَّظَرْ ! وَجعي عليهَا يومَ فَقدَت بُوصلَتَهَا ، وَيومَ لَمْ تدرِ أيَّ بَحرٍ يؤدّي لجَنَّةِ شُطآنِها . . وَليلَ صَرخَت مِلأَ الصَّوتُ بُهَا ، . . . الصَّفحُ مِهنَتي أمْ غَايَتي العِقَابْ ؟ !

هَل لا أَزَالُ أَنبعِثُ فِي رُؤَيَاكَ أَرقَاً بَنفسَجِيَّاً يُحرِّضُ الخوفَ فِيكَ عَلى أَن تَهذِي باسمِي ؟ . . وَأَن تَصرُخَ مِلءَ الفَزعِ لحظَةَ انسحَابِي عَن حيِّزِ مَنامِكَ . . ؟ تُرَاكَ كَم مرَّةً استَدَرتَ إلى ضِفَّةِ حُلْمِي وَلَمْ تَجدنِي فِي مَخْدَعِكْ ؟

وَأَسألُكَ أَن كُفَّ عَن بَذلِ شَهَادَاتٍ مَجْرُوحَةٍ بحَقِّ عَفوِي السَامِيْ عَن شَغَبِ مَا تَصنَعُ بِملءِ إرادَتِك . . !

فِيَّ مِنَ المُستَحيلِ ضَجَرٌ ليسَت فِيهِ شُطآنٌ تُدارِي فرحَ نوارِسِي البَيضاءَ . . ! وبِي مِن المُمكِنِ مُعجِزَةٌ تَتوقُ لِرَحمَتِي بافتِعَالِ النَّزفِ خَاصِرَةَ النِسيَانْ !

بِفَصلٍ ليسَ لِبَنفسَجي صَحْوَةٌ ، ولا لِغَفوي فِيكَ اُقحُوَان ، وَقَد ذَبُلَ الجُورِيُّ، مُنذُ أَن دَفعتَ بِمملَكَتنا لِلسُقُوطِ قَابَ قَوسَين مِن شَوكٍ وَهَذَيَانٍ . .

تَراتيلُ رُوحِكَ مَا عَادت تَخترِقُ سَمائِي، أَو تُسلِّمُني لأُمنيَةٍ تَدفَعُ بِكَ إلى عَنَاوِينِ الرِّفعَةِ، دُونَ أَن تَسْقُطَ مَعَهَا !

لا تُفَاوِضنِي عَلى سَلامٍ تَرجُوهُ مِن بَقَايَا القَلب . . اجعَل مَا تَبقَّى مِن شُعُورٍ يَرقدُ بِسَلامٍ، فَلا مَجَالَ لِلصُّلحِ وَسطَ مَعرَكَةٍ سَقطتَ فِيهَا شَهيداً ، وَلا شُهُودَ عَلَيكْ !

تعدَّدتِ الظُّروفُ وَيقيني بِكَ غَالِبَاً وَاحِدْ، وَعِتابُكَ لِي يَجبُ أَن يَرقَى إلى مُستوَى تَدنِّيكَ . . وَإِني تَعدَّيتُ مَراحِلَ الظَنِّ بِكَ مُنذُ امرتأيتُ النَظرَ لأبعَدِ مِن عَنَاوِينَكَ ! وَإحصَاءِ الرَّقمِ الصَّعبِ مِن سِجِلاتِ رَصيدِكْ ؟ !

بالطَّبعِ ستبكي كثيراً أمامي، لآخرِ أيامِ عُمرك.. أوَلستَ مَن يَبكي قلبُكَ على بُكاءِ عينيْ؟ هذا ما كُنتَ تقولُهُ كي أكُفَّ عَن كَوني طِفلةً بكّاءة.. الآنَ مَن الذي يَبكي أخيراً يا صَغيريْ..؟!

هنيئاً لكَ!

اكتَملَ خُذلانُكَ لي، وبالكادِ انتصفَ لأُمنيتي فيكَ.. قَمَرْ!

خَيبَتي مُرتبطةٌ بأنانيّةِ ما صَعَدتَ ذاتَ نَهارٍ حينَ تجاهَلتَ مَعنى دُموعي.. وَجئتَ تَمسَحُها بمِنديلكَ المُتّسخ..

لقَد وَقعتُ عَن سُلّمِ أُمنياتكَ وَلَمْ تلتقطني..! أبصَرتُكَ رُغمَ شَحيحِ رؤايَ وَلَمْ تُكلّف نفسكَ عَناءَ رَفعِ كفّكَ لي، تُؤدي لظلّي التحيّةَ!

أتيتَ مَنقوصاً بظَرفٍ لا يَعنيني، كُنتُ برِئَةً جداً كَي أَرسُمَكَ فِي دَفتَرِي كَامِلاً، بِرأسٍ كَبيرٍ وَقَلبٍ خَامٍ، وَرُتبَةٍ مَنسِيَّةٍ وَيدٍ غَليظَةٍ.. عَلى هَيئَةِ.. إنْسَانْ!

..لَمْ أُبَالِ بعتمِ مَا ظللَكَ، رُحتُ أَدورُ حَولَكَ بَرَاءَةَ فَرَاشَةٍ لَمْ تُوقِنْ قَبلَ احتراقِهَا أَنَّ المَوتَ فِي احتَرَافِ الدُّوَارِ يَكُونُ بُطيئاً.. أَشبَهَ بِخُدعَة!

تُطَارِدُنِي فِي الكَوابيسِ تُرِيدُ تحصيلاً بالجُملَةِ لأحلامِيْ.. أَينُكَ يَا مَن أَودَعتَ أَدراجَ خَزِيتَكَ صَكَّ سَعَادَتِيْ..!

هَل تعتَقِدُ أَنه عَليَّ أَن أَبقَى ضِمنَ قَضَايَايَ الخَاسِرَةَ أَحمِلُ كَسرَ قِيثَارَتِي أَينمَا تَوجَهتُ.. وَأَنظرُ انتظارَ مَا تَنتظِرُ.. وَأَتوهَجْ؟

بَذلتُ مجهوداً إستثنائياً لِبُلوغِيَ الفَرح، خَبَّأتُ عَنكَ بُكائِيَ الطُفولِيَ لأنَه يَجبُ أن أَكبُرَ، كانَت عَتمَتي سِريَ المَفضُوحَ لَكِ، لأنَ مَا بَينَنا . . حَبلاً سِرّيَا .

برأيي؛ أنتَ لاجئٌ سِياسِيٌّ في عُمري، تَوَدُّ اجتيَازَ رُخصَةٍ تُؤدّيكَ وُجُوداً ! وَرُغمَ شُحِّ سَلامِكَ وَاتّساعِ حَدَقَةِ الجُنونِ فيكْ . .

أَخَذتَني عَلى مَحمَلِ الفِعلِ حِينَ قُلتُ لَكَ أَرشِدني لِنسيَانَكْ . . شُكراً لَكَ .

. . . رَصَاصِيَةُ الهَوَى إنّي . . أَمَا زِلتَ لا تَدري أَنَ الطَلقَةَ إنْ لَمْ تَخِبْ . . تُصِبْ ؟

أُريدُ أَن أَعتصِرَ دَمَكَ وَأُسرِبَ رُوحَكَ ! حِينَهَا فَقَط سَأَنعَمُ بِالصَوتِ، فَلا مَخالِبَ تَهمِشُ فِي خَيَارَاتِ السّلمِ بِمَدارِ رُؤايَ، وَلا ذِئابَ تَتَغَذَّى عَلى خَوفِيْ ! !

مَا عَادَ يَكفِينِي مَن الكَلِمَاتِ مَا أَنطِق، وَلا صَمتَ مَا أُخبِئُ، وَلا اختِنَاقَ مَا يَلزَمْ !

استَنزَفتَ رُوحَ العَفوِ مِنّي بِطَيشِ الصِّبيانِ وَتَجَاوَزتَ المَسمُوحَ . . أَنتَ تَفتَقِرُ إِلى رُخصَةٍ لا فُرصَة ! ثَمَّةَ خُدعَةٌ أَدمَنتُها مُذ عَرفتُكَ . . أن أتناسَى ! تلكَ الخدعَةُ التي عَلَّمتني أَن أَقَلَّ مِن ثَوابِتِ الخَوفِ فِيَّ، وأن أحشِد لِمُتغيِّراتِ الفَرحِ مَعَكَ . . قَصَائِدَ ! حَسبِي أنني تَقبلتُكَ بأيِّ شَكلٍ كُنتَ عليه، حَرباً أو سِلماً، عَوَّلتُ عَلى أَن تَكبُرَ أَغصانُ وُرودِكَ فِي حَدائِقِي . . لَكِنَّكَ آثَرتَ عَن سَبقِ إِصرارٍ وَقَصدٍ بِأَن تَكُونَ صَاحِبَ الأَمرِ بِتَحرِيكِ جُيُوشِ الحَربِ التي دَاسَت عَلى زُهُورِيْ .

صِفرُ خَسَارَاتِكَ لَيسَ لهُ مَقَام فِي الجَبرِ وَحَسبْ . . إِنَّهُ أَبسَطُ مَا قَد خَسِرتُ !

مَا عُدتُ أبحَثُ عَن اسمِكَ فِي صَفحَةِ المَفقودينَ لإيقانِي أَنني . . ذاتُ الفَقدْ ! جَاءَ هَزيلاً صَوتُكَ . . وَأمنياتُكَ فَضفاضَةْ، ليسَت عَلى مَقَاسِ الوَاقِعْ المُحَاصِرِليْ، فَثمَّةَ وَجعٌ تَغَذَّى عَلى رُوحِي . .

هَل كُنتَ تضمَنُ بَقائِي عَلى الانتظَارِ بِقَدرِ ضَمَانَتِكَ القَلبِيَّةِ بِكفَالَةٍ لِعَدَمِ قُدرَتِي عَلى الخُرُوجِ مِنكْ . . ؟

سُطورِي العَزيزَة . . أَستَسمِحُكِ عُذرًا مَا أَصابَ صَفحاتِكِ مِن تُخمَةِ الأسوَدِ . . كَانَ حَرَبًا بِي أَن أُجمِّلكَ بِشَرائِطِ الحَريرِ وَأُنزخرِفَ جَبينكِ بِالوَردِ . . لكِنَ الوَاقِعَ أَتانِي مِن نَصيبِ الشَّوكِ مَا يَجعلُني لا أُجيدُ إلا مَلامِحَ الذُّهُولْ !

هَل ارتأى نَجمًا أَضَاءَ أُفقِي وَانطَفَأ إثرَ صَدمَةِ اصطدامِهِ بِنَيزَكٍ . . فأحتَرِقْ ؟ ! هَل أُدارِي رَمَادَهُ بِجمعِ ظِلِّهِ المتناثِرِ فِي الشَفَقْ ؟ . .

باهتٌ أنتَ مُتعدمُ اللونِ في عَينيَّ مُؤخَراً ! كأميرٍ هَاربٍ من فَرحِ النهايَاتِ ! كَظِلٍّ مُتلبسٍ بالأسودِ حتى عَينيه !

كَمْ كُنتُ كَئيبَةً كَنورسٍ في غفلةِ طيرانهِ ضيّعَ الجهاتْ !، من فَرطِ سَهوتي لَمْ يَعُد الهُبُوطُ على أدراجِ السّلمِ مُباحاً . . ولَستُ أدركُ لرَصيفِ لجوئي عنواناً ولا مَصدَراً . . !، ربُما الوَقتُ كَفيلٌ بأن يَفتَحَ لي رَصيفاً جديداً كي أمُرَّ عليهِ مُشرعَةً جَنَاحَيَّ بِثِقَةِ وُجودِكَ، شَجرةٌ طارئةٌ في مَدايَ على حينِ مُصادَفَةٍ . لأُحطَّ عليها جُلَّ تَعبي وأستريحَ !، وَربُما الوَقتُ كَفيلٌ بأن يَمُدَّ أمامَ ناظِريَّ على امتدادِ الوَجعِ صَداكَ على هَيئةِ ضوءٍ خَافِتٍ من مَنارَةِ قَلبكَ؛ لأرى طَيفَكَ وَرداً منثوراً على أرضِ الجُنُونِ . . وَمَعَ كُلِّ هذا، أرفضُ إشارتَكَ إليَّ . . ولا أرتضي لراحَتي في رُقعةِ حَيَاتي الوَردِيَّةِ رُخصَةً ! ! . . فأنسَحِبُ عالياً إلى سَماءٍ ما يُرضي غُرورَ جَناحَيَّ من نُورٍ . . وأحلّقُ !

بِتُّ المُتضَرِرَةَ الأكبرَ من وَجَعِ حُضُورِكَ . . وَالمُتَّهمَةَ الوَحيدةَ من رَجعِ غِيابِكْ ! .

لقد أثقلتُ في جُرعةِ الدّمعِ على ما يبدو، فما أراهُ التماعٌ لنبضِ الزّجاجِ على رصيفِ انتظاري لخطوةِ بدءٍ على مُفترقٍ! . . ماذا لو تخطفُني غيمةٌ وتدورُ؟ . . أو يطالُني تيهٌ بأمرِ كسوفٍ؟ . . ماذا لو انعطفتُ قليلاً نحوَ اليسارِ وأوغلتُ حدَّ انتهاءِ الطّريقِ؟ . . فأصلُ إلى مُنتهايَ وأصرخُ فيكَ . . فيخرجُ من ملامحِكَ الذهولُ، وتسقطُ عن شُرفةٍ من صُنعِ خيالي . . .

أرغبُ في السّيرِ طويلاً، وجهتي مقهىً لا يرتادهُ غيرُ التّائهينَ! أودُّ أن ألتقي بحدثٍ لطيفٍ أو بطيفِ ذكرى . . وأتجرّعَ معهُ فُنجانَ قهوةٍ، لي الخيارُ بحصّةِ السُّكرِ فيها! لنتكلّمَ بعيونِنا . . يُدلي باعترافاتِه وأصغي، أغضُّ الطّرفَ عن وُعودِه وأمضي . . ولا أردُّ لعينيه . . جوابًا!

كُلّما سلّمني الصّدى للحنِ أُغنيةٍ حزينةٍ لأسكنَ فيها . . وجدتُني صمّاءْ . . !

أليسَ مِن حَقّي أن أَحظَى ببعضِ التَبضِ الخالِصِ لِنَفسِي ؟ . . أَحتاجُ لهُ حَتى أُعيدَ تشكيلي بالتَّكوُّنِ هُنا بِملامِحِ حَالَةٍ والتَّجَدُّدِ باسمِ مَا أتمَنى . . أَن يَعُودَ فَوقَ رأسِي هَالَةً، أُريدُ أن أنزِفَ حِبراً مَوضِعَ القَلبِ عَلَّ الحُزنَ يغادِرني إلى مَالا نِهَايَة . . .

أتنفَّسُ الفوضَى . . أُكسجيناً طَارِئاً لا يحفِّزُ رأسِي عَلى الإمساكِ بأدنَى فِكرةٍ . . خَاوِيَةٌ مِنَ الطاقَةِ . . مُنخفِضٌ رَصيدُ الحَرفِ فِيَّ، لكِنني ومَهمَا كانَ وَضعُ إمكانياتِ الروحِ . . سَأَكتُبُ ! فِي غَبشِ الرُّؤى أراكَ دُخاناً أسودَ . . تُشبِهُ الكَابُوسَ الذي كَادَ يُغرِقُني بِكثافَةِ المَشهَدِ .

تَبدو الكَسيرَ الذي حَاصَروهُ بِمَا أتت يَسارهُ . . لَكِنَّكَ السَّاحِرُ الذي كَسَّرَ فِينَا الخواطِرَ بِيمينِهِ !

لا شيءَ يَستحِقُّ الانتظارَ مُذ عَرفتُكَ . . . جُلُّ وعودِكَ أسرٌ، و مُقتبسُ كَلامِكَ عَسلٌ لا يَعنيني . . فأنا لا أحِبُّ السَّكرَ الزّائدَ عَن الحاجَةِ، وأنتَ فِعلُ مُرارَةٍ!

انتظارِي لكَ بَاتَ ضَرباً مِن المَوتِ البَطيءِ عَلى شُرفةِ رَبيعِيْ، أمّا انتظارُكَ لِي -على مَا يَبدو- لَكَ وَحدَكَ . . فَهوَ أشبَهُ بِبوّابَةٍ مَفتوحَةٍ عَلى الجَنّة!

لا جِنّةٌ إلى جُدرانَ مَائلةٍ مِن حَربِ جُنونِكَ . . أحمِلُ فِي جَيبِي أَلعَابِي، وَفِي رأسِي حُروفَ اسمِكَ كابوساً حَيّاً .

. . لَن أحتملَ كَذِباً أكثَرَ مِن جِهَاتِ الضّدّ وَلستُ مُضطرّةً إلى مُسايَرةِ وَضعٍ لا يَدَ لِي فِي تَفشّيهِ وَرَمَاً !

كَـمْ ستَبكِي،

كَي تعيدَ وسامَتِي ؟

ليلاً من الدَّمعِ . .

مَا قَد يوَفّي .

لا مَلجأَ لرأسِكَ المثقَلِ،

بالمَوتِ . . . . بَعدِي،

يا مَن أشعلتَ . .

بِغارَتِكَ حرباً،

ما احتواهَا . .

حِرصُ وصاياي إليكَ . .

ولا نيَّةُ أمنِيْ !

لا مَرجعيَةَ ثابتةٌ للوجعِ . . لأننا المَسؤولونَ عَن نَوايانَا بغَضّ النَظرِ عَن هَامشِ الحُزنِ أو الفَرحِ ! . . لكلٍّ منّا حِصّةٌ مَقسومَةٌ عَلى مَقدورِ دَفقِهِ، يمكنهُ أن يَستوعِبَها أو لا، لَهُ الإرادَةُ المطلقَةُ بالاحتِمَالِ المُتوافِقِ مَع مَزاجِهِ . . !، بالارتِقَاءِ إلى بُكَاءٍ طويلٍ أو مَيلٍ نحوَ أُغنِيَةٍ !

سلّمنا يومَ الوعدِ،
مَفاتيحَ القُلوبِ . .
لكَ تجلّياتُ الرَّدّ،
أَغانٍ مِن سُرورْ .
وَلِي مِن عُهودِكَ . .
شَمعةٌ تذوي،
لَيلَ داهَمَنَا التّعَبْ !

لا توجدُني مشهَدَ رَفضٍ ! فلَمْ أَرمِ حَجراً صَغيراً فِي بُحَيرَتِكَ،
. . لكنني الآنَ سأُفجّرُ الصّخرةَ الأكبرَ كَي أدفِنَكَ، وأبرّرَ
فِعلي . . بردّ الفِعلِ المُساوِي فِي المِقدارِ، باتّجاهِكَ ! . .
تقَبّلِ الأمرَ، . . إنها لُعبَةٌ . . إنّهَا حَربٌ !

بِتُّ بقَايَا وَردٍ مَنثُورٍ عَلى شُرُفَاتِ اللّهفَةِ . . !

صُراخٌ يُرتّبُ صَدى الكَلامِ فِيَّ، وَيُطلقهُ قَصيدةً مَعصومَةً مِن الانتِهَاءْ !

لا شَيءَ يَعلو فِيَّ غَيرَ الخفَّةِ لروايَةٍ أَبدو فِيهَا حَدثاً فِي خَيالٍ . . ولأنّي أنحدِرُ عُمقَ تيّارٍ يَشُدُّنِي نحوَ واقعٍ أَرفضُهُ . . أَجدُنِي أَطفو وَلا تَطفو بِي كَلِمَاتي . . إلى سَطحٍ ! فَحقيقةُ تِيهِي مُسلَّمٌ بِها . . ويَقيني أن السَّماءَ تشدُّ على يَديَ لترفَعني، وَحدَهُ عُنوانُ اتّكالي وَمَلجئي الوَحيدُ !

ضائِعَةٌ عَلى حَدّ الدُّروبِ،
وَطَنِي خَارِطَةٌ مِن ظُنونٍ . .
وإنِي حَدثٌ فائِضٌ عَن السَّردِ . .
أَمَّا أجنِحَتي،
فَحَاجَةٌ قُصوَى؛
. . للخِفَّةِ.

مُمتَثِلٌ ظِلُكَ على سَقفِ لَيلِي . . لا يَستطيعُ غيرَ النَظرةِ البَاردَة، أومِئُ لكَ بأن تبتعِدَ . . فَلا أجدُكَ تتنحَّى عَن عَينيَّ حتى حينَ أغمِضُهما ! أشيرُ لكَ بالاقتراب . . تَعالَ اجلِس بقربي و مَسّد على قَلبي البُكاءَ . . لكنَّكَ هناكَ مُلتَصِقٌ بالسَّديم . . حتى طَيفُكَ باتَ مريضاً، يُشبِهُ وَمضُكَ الذي يَدَّعِي وُجودَهُ . . ! كَمْ مَرَّةً عليَّ أن أضَعَ يديَّ على عينيَّ كَي أغمضَهما عنكَ . . . . ؟ وأن أضربَ على قَلبي ألفاً كَي لا يُسرِعَ بالنَبضِ إليكَ . . . . ؟ عَقيمٌ تَفكيري بكَ، أتظاهَرُ بأنني أتذكرُكَ رُغمَ نِسيانِي لِتفاصيلِ مَلامِحِكَ !

أَرفضُ وُجُودي فِكرةً سَوداءَ، وَأُقبِلُ عَلى نَصّي بِبَصمَةٍ بيضاءَ !

لَيسَت عَلامَاتُ الدَّهشَةِ فقط مَن تزاحَمت فِي نُصوصِي . . بَل وللاستِفهَامِ فِيَّ نَصيبٌ يَكبرُ كُلَّمَا انطوَى يَومٌ عَليَّ وَلَمْ أَجِد فِيهِ جَوَاباً لِسؤالٍ دَفنتهُ فِي الأَمس !

فِي مُنحنى صَفحةِ كفّي . .
خُطوطٌ كَسربِ الحَمامِ،
لا يَكسِرُها ضوءٌ،
ولا تَجْرَحُنا العتمَةُ!
أَرضُ الخَطايا قيَّدت خُطوتِي،
ولا مَتنِي يَومٍ تجمَّدتُ . .
ويَومَ انصهرتُ،
بِخَاتَمِ . . نُورٍ!

كيفَ الرَّحيلُ إلى حَيثُ هناك!
ولا دَربَ يَرفعُني إليهِ . .
ولستُ أدري،
كَمْ سنيناً سوفَ أغفو . .
كَي أطالَ إمساكي بيَديه؟
ابتكِرُ للغَيمِ مَوانِئ!
انتهِك خَرائِطَ الحُلمِ . .

لَطَالَما كُنتَ تَسألني فَتحَ النَوافِذِ . . لَستُ أدري أكنتَ ستَأتيني عَلى هَيئةِ طيرٍ يَنشُدُ الحُرِيَةَ وَفي يَديكَ لي . . قَيدٌ !

تَهالُ الأمنياتُ عليَّ . . بعامٍ جَميلٍ أكبَرِ من وَصفِ الفرحِ حافِلٍ بالأغنياتِ ! لكني لَستُ التي تتوَرطُ بالتَّمَني، لأكتفي بِوَضعِ الفَاصِلَةِ، فَالإفصَاحُ عَنها دَليلُ استمراريةٍ لا يَعيهِ البَعضُ، لكنَّ بعضَهم يُدرِكُ قيمةَ النُقطَةِ وَمَا للفَاصِلَةِ مِن استخدامٍ !

أشبهُ جُندِيًا يُهَاجِرُ من وُجوبِ الأمرِ برحيلٍ إلى نهايَةٍ مُثلَى ! يبحَثُ بين سُطورِ خُطوتِهِ عمَّا خلَّفتهُ الفوضَى مِن انضباطٍ مَشبوهٍ . . أو دَليلٍ لوجودِهِ ! يُعانِقُ غصَّةً فينزِفُ إثرَ الطَّلقةِ حِبراً، وأنا التي تَبكي عَلى جرحِهِ وَتقرأُ مَا فِي خُطوطِ كفِّهِ . . وأقتَفي سطورَ ثقلِ أنزمتِهِ . . بخفَّةٍ تتبُّعي الكَلِمَةَ فِي وَصفِهِ . . وأدرِكُ أنهُ عليَّ أن أصِلَ وإيَّاهُ لأطلقَهُ بُراءَةً، بعدَ استنزافِهِ لِمَوارِدِ النَصِّ .

أُريدُ زمناً خالصاً من حصاري، وعُمراً لا يُشبهُ تعرُّجاتِ إمضائي، ورَبيعاً مُزهراً على عُروشِ لوزي، ونوماً هنيئاً من أرقِ صُداعي . . . ! أريدُ تأشيرةً تُوفّي وُصُولي إلى مُدنٍ مُضاءةٍ بالسّحرِ، عَوالِمَ لا أعرِفُ فيها معنىً للدّمعِ . . ولا ألقاكَ ذاتَ مُصادَفةٍ تخونُ فيها الميعادَ، أريدُ وَصفةً صادِقةً لأداءِ يمينِ غيابِكَ عَن قلبي، وَمَراسمَ مُعقّدةً لِطَقسِ أفولِكَ . . تونزِعُ على شَرفِكَ الياسمينَ !

وأقنعُ نفسي أنّ سُكنى النّصِّ أسهَلُ من رَفعِ رايَةِ الكَلامْ !

لا بُدَّ من تتبُّعِ مَسارِ فَراشَةِ الضوءِ، قَبل أن تذبُلَ ألوانُها ويَتبَخَّرَ جَناحاهَا وَينطوي الأثرُ . . فِي لَيلٍ لَيسَ لي سِواها تأشيرةٌ وعبورْ !

أتمنّى لو يُفتَتَحُ فِي قَلبي مَهرجانُ فَرحٍ عاجلٍ . . أزرُفُ فيهِ الحمامَ ! وأنثُرُ بُتلاتِ الوَردِ عَلى رأسي . . أرقُصُ عَلى إيقاعِ الهَديلِ . . وَأسمو .

حِينَ لا تكونُ لي الغُصنَ وتصادَرُ من تحتِ أقدامِي الغَيمَةَ، لَن أضيّعَ عَنَاوينَكَ. . لكِن سأَتخطَّاكَ إلى رُكنٍ نَاخِرٍ بالكُتُبِ.

أَلُمُّ خرائطَ الأيامِ عَنِي. . وَأَنزرِعُ لَهفَتِي بينَ الضُّلُوعِ.

لَو يُباعُ الفَرحُ. . كُنتُ بَنيتُ سُوقاً لهُ ووَزَّعتُهُ بالمَجَّانِ على جَميعِ المَهمومينَ. . ، رُغمَ أنَّ قَلبي فَائِضٌ بالحُزنِ. . ! إنَّ الدُّروبَ السَّوداءَ مُتخَمَةٌ بِه، بَاتَ مَعروضَاً دونَ طَلبٍ. . ، باتَت صَلاحِيَّتُهُ مؤرَّخَةٌ إلى الأَبدِ!

سأكونُ مَطلعَ كُلِّ وَجهٍ تَراهُ عِندما تَنفضُ النُّعاسَ عن عُيونِكَ، سأُزرِعُ فِي لونِ كُلِّ وَردَةٍ تُصادِفُها عَلى الأرصِفةِ، سَأَسكُنُ فِي كُلِّ أُغنِيةٍ قَد تُراودُكَ عن سُكونِكَ، وسأكونُ أقربَ إليكَ من أيِّ عِطرٍ يحتَرِقُ جروحَكَ. . أترصَّدُ خُطوَتَكَ بحَجرٍ، وأثقِلُ كَتفَيكَ بالكوابيسِ. . سأَكونُ حَاضِرَةً كُلَّ حينٍ كَي ألقِيَ التحيّةَ على ضَميرِكَ!

سَأَرفَعُ أغنِيَتِي عالِيَاً جِداً . . لِي كُلُّ السَمَاءِ، قَد أخسَرُ صَوتِي . . ! لكِنّي سأَلتحفُ الغيومَ، وأجمَعُ النُجُومَ . . قَد أَسرِقُ القَمَرَ . . !

تَجاوَرتُ احتمالَ الانطِفاءِ بِجَرِ وردَةٍ، لا باحتِضانِ شُعلَةٍ، أنا لَمْ أختبِئ إنَمَا اكتَمَلتُ بهالَةٍ مِن نُورٍ . . حِينَ استَرحَتُ .

يَهفو نسيمُ البَنفسَجِ . . صَوبَ نوافِذِي،
يَكتُبُني عِنواناً . . مَحْنِيَّ الهَمَّةِ مخفيَّ العتبَاتِ،
أأتَّخِذُ من لونِهِ . . وَطَنَاً فِي أُفقِ الغَيمِ . .
لا على أَرضِ الإخفاقْ ؟ !
مَن يبعثُ فِي رُوحِي . . عِطراً،
ليحفِّزَ ضوءَ دمِي . . وَيُسرِّبَ بضعَ أمانٍ،
هرَبَت من عَتمِ الأرجاءْ ! ؟

أتوسّلُ إلى خوفِي بأن يَهدأ،
رُبما أجدُ قربَ مَنامي . .
حلمَاً يتوّجُني إلى سُرور!
وأتتبَعُ سردَ حكايَةٍ،
وأحيدُ صوبَ سَرِبٍ،
مرَّ فوقَ جُنونِ الغَابةِ . .
لأني منذُ تَعلمتُ السَّيرَ،
على أَرصِفَةِ المَوتِ . .
لَـمْ أحيَ!

بِكَثافةِ ظِلٍّ مِن الحُزنِ أَكتبُ سيرَتي عَلى وَرَقٍ خَريفيٍّ . .
وأَمضِي فِي هَامِشِ الانتهَاءِ، وَصيَّة!

مُذ أطلقتُ جَناحَيَّ لَمستُ حَدَّ المَساءِ ونزبَقَ رُوحِي بِمَسٍّ مِن
رِياحِ الظُّنونِ انكسر!

آثرتُ الهِجرةَ بجناحينِ من خِفَّةٍ،
تقمَّصتُ دورَ العصفورِ . . !
فغافَلَ صَحوي . .
نجمٌ شدَّ وِثاقَ الحُلْمِ،
عَلَّمَني أن أكتُبَ إحساسِي . .
قَصائِدَ من وحيِ الشُّعورِ !
قُلتَ لي أن الدَّمعَ ضَعفٌ،
لكنَّه لي نومٌ . . ومَسارُ !
أخشَى النَّظرَ إلى أخضرِ عَينيكَ،
لا أفهمُ ما يَرمي إليهِ هَذا الإصرارُ؟
أملي بأن أبلغَ سلَّمَ ارتقاءٍ لأُريكَ،
أني نجمةٌ . . يتوّجُها النَجاحُ باسمِكَ،
تبلغُ بمداها . . بِحاراً !

نُراهِنُ على مزاجِ الأزرقِ فينا، بنَجمَةٍ وسَماءٍ . . ولأنَّ زِبَقيتَنا أكبرُ من كَثافَةِ المَشهَدِ . . نسقُطُ في الاحتمالاتِ، ويَبقى الأزرقْ !

أنا التي خلفَ بابِ الصَّدى،
أقمتُ مَراسِمَ بُكائِي طَقَساً افتراضياً،
وَدَفنتُ فيهِ أمنيةً، وَحرَرتُ الرَّجاءَ .

أشرعتُ بوحِي لمدّ الكَلام،
فأيُّ المعاني سيصعَد . .
ليكتُبَنِي فِي حَضْرَةِ نَجْمَتَينِ،
. .أثراً . . ؟

وتَبيَّنَ لِي بَعدَ خَيبَةٍ عَصِيَّةٍ على التَّدوينِ فِي دَفَاتِرِي . . ، أنَّكَ فَائِضٌ عن حَاجَةِ القَلبْ . .

كُلُّ مُتأخِّرٍ عَن جَوابِهِ فِي قانونِي . . مراسِبٌ، ومن يَسقُط فِي سُؤالِي لا مَفرَّ لهُ ولا نَجَاح!

تشَكَّلت غيومُ الحِصار في أفقِ حلمي . .

حَرمَتْ عَصَافيري منامَها ،

وأَسْدَلَت دُموعَها على جَبهتي !

رَفعتُ كفّي إلى السَّماءِ كَي أقتَفي من فَيضِها ،

بعضَ كُحلي . . لأكتُبْ !

ماذا أخطُّ على صَفحةِ الرُّوح ؟

والنَّقشُ حَسبي . . نجُومٌ ودوارْ !

عَناويني اتّكاءةٌ على حُدودِ الصَّمتِ ،

وَنصّي جَعْبَةٌ من حِكَايات . .

وإمضَائِي ، وَطنٌ مُحَاصَر !

ومِن حَنينه لِقَضيَّةٍ حُرةٍ كاسمِيْ ، راحَ يَبحَثُ عَن الأربعينَ مِنّي فِي وُجوهِ العَابرينَ مُتلبّساً خَافِضَ الرَّأسِ مِن هَيبَةِ المُعتَقَلِ !

لَمْ يأخُذني على مَحملِ الاستثنَاءِ فِي الحُبِّ ، أعتقَدَ أنني أشبهُ البقيَّةَ !

أمري عَجبٌ . . قَلبي مُتفحّمٌ وابتسامَتي رَبيعٌ، ومَريدي نازفٌ وصَدري مفتوحٌ على الشَهقَةِ، بينَ يديَّ حُبوبُ قَمحٍ في جيوبي تُرابٌ أحمَرُ، وكأنَ بي بُرعماً توهّجَ في خوذَتي المَكسورَةِ بعدَ مَعركَةِ دَمْ . . !

كُلَّمَا أَبديتُ استقامَةً في التفكيرِ لأقِفَ على مُسَلَّمَاتٍ مَا يُدركُ عَقلي بأمرٍ تنحّيكَ عن سُلطَةِ مَلكتي . . أجدُ قَلبي يميلُ إلى حربِكَ المَمسوسَةِ ويَستثنيكَ مَلِكاً . . . !

انفعالاتي تخرجُ مني بنَفسجَةً، بعدَ كُلِّ غصّةٍ علنيَةٍ، أو نيَةٍ لسؤالٍ طَارِئٍ، إني على الاحتمالِ أقمتُ صَمتي واكتفيتُ، وَصَادمرت عَيناي ما فاضَ من إيقاعٍ ! أجنِحَتي مسّهَا ضوءٌ أعلى مِن عَتمتي، لأتحوّلَ إلى هَشَاشَةٍ لا يطالُها مَشهدٌ بجهاتٍ . . لأني منهكةٌ بنسجِ الوُضُوحِ على جَانبي التّيهِ في مَنفايَ، لا أعثرُ على دولَةٍ تقوّمُ هدنتَها، جُلُّ مَا ألقاهُ علامَةٌ مُتدنّيةٌ . . وقامَةٌ لظلٍّ . . ومَلامْ ! !

يتداعَى قَلبُكَ وراءَ النَصّ، وتَسقُطُ من عَينيَّ دموعٌ . . تُبصِرُ بقيَّةَ نفسِكَ وتَتَحَسَّسُ ضِلعَك ! تتأكَّدُ أنَّ اشتعالَكَ انخمَدَ . . وتسألُ: "مَن أشعَلَني ؟" .

فاضَ عَنِي النُعاسُ ونومي غايةٌ . . لا مزاجٌ !
أرقُبها من بعدِ صَحوةٍ مُتخَمَةٍ بالصُّداعِ،
كأنَّ ما بيني وبينَ المَنامِ . .
قيدُ هدنَةٍ . . لاحتلالٍ، لِئلا أنامْ !
أسعى خلفَ سَرابٍ مرَّ فوقَ رأسي . .
وألقَى هالةَ سكوني، . . تاجاً !
وأعدو حافيةَ الخطواتِ خلفَ وعدٍ مؤجَّلْ،
أستعجِلُ وصولي . . لحفلِ الختامْ !

فِي الختامِ،،

تَلزَمُني هُدنَةٌ لترتيبِ ما يَلزَمُ، لإعادَةِ كُتبي المُفضَّلَةِ ذاتِ الأغلفةِ الأنيقةِ على الرُّفوفِ. . لمسحِ غُبارِ الطَّلعِ وضَبابِ الأزمَةِ عَنِ السَّقفِ. . لإغلاقِ النَّوافذِ على أَصابِعِ النَّدَمِ وإسدالِ ستارَةِ المشهَدِ ما قَبلَ الأخيرِ. . . . لِمَحْوِ وُجوهٍ حَاصَرتني بوجومِها فِي الصُّورِ. . لرفعِ الهوامِشِ إلى أعلاها مَصيراً. . لنشرِ زَهرِ اللوزِ الوردِيِّ على الأرضيَّةِ. . لافتراشِ التُّرابِ وقَطفِ سُنبلةٍ ذهبيَّةِ الطَّالعِ، لتوسُّدِ الأُمنياتِ بِصَرخَةٍ تُبَدِّدُ الغيومَ، لمَسحِ آثارِ الدَّمِ المتخَثِّرِ في جُيُوبِ القَلبِ. . للانسجامِ مع أغنيةٍ لا صَدى فيها يَرِدُّ ولا نَبضٌ، لتمامِ سِلالِي بِزَهرِ ليمونٍ حَيٍّ. . للرَّقصِ على حَافَّةِ الجُنونِ بِضِحكَةٍ تضجُّ في الكَوْكَبِ وتُثيرُ سُخريةَ الوَجعِ. . !لأجلِي. . لأجلِ مَن يَتقبَّلُني بِثِقَلي وبلوني الشَّاحِبِ قَبلَ خِفَّتِي وانكسارِ أجنِحَتِيْ. . ، لأحبَّتِي. . سَأبقى. . أَكتُبُ.

الفَهرَس

الإهداء،، 5

بِدء،، 6

مَن "فَاوانيا".. ؟ 7

الفَصل الأول

زهرة "فاوانيا" واحدةٌ بيضاءُ لي. 8

الفَصلُ الثاني

أربعةُ أزهار "فَاوانيا" بيضاء لَكْ. 88

فِي الخِتامِ،، 151